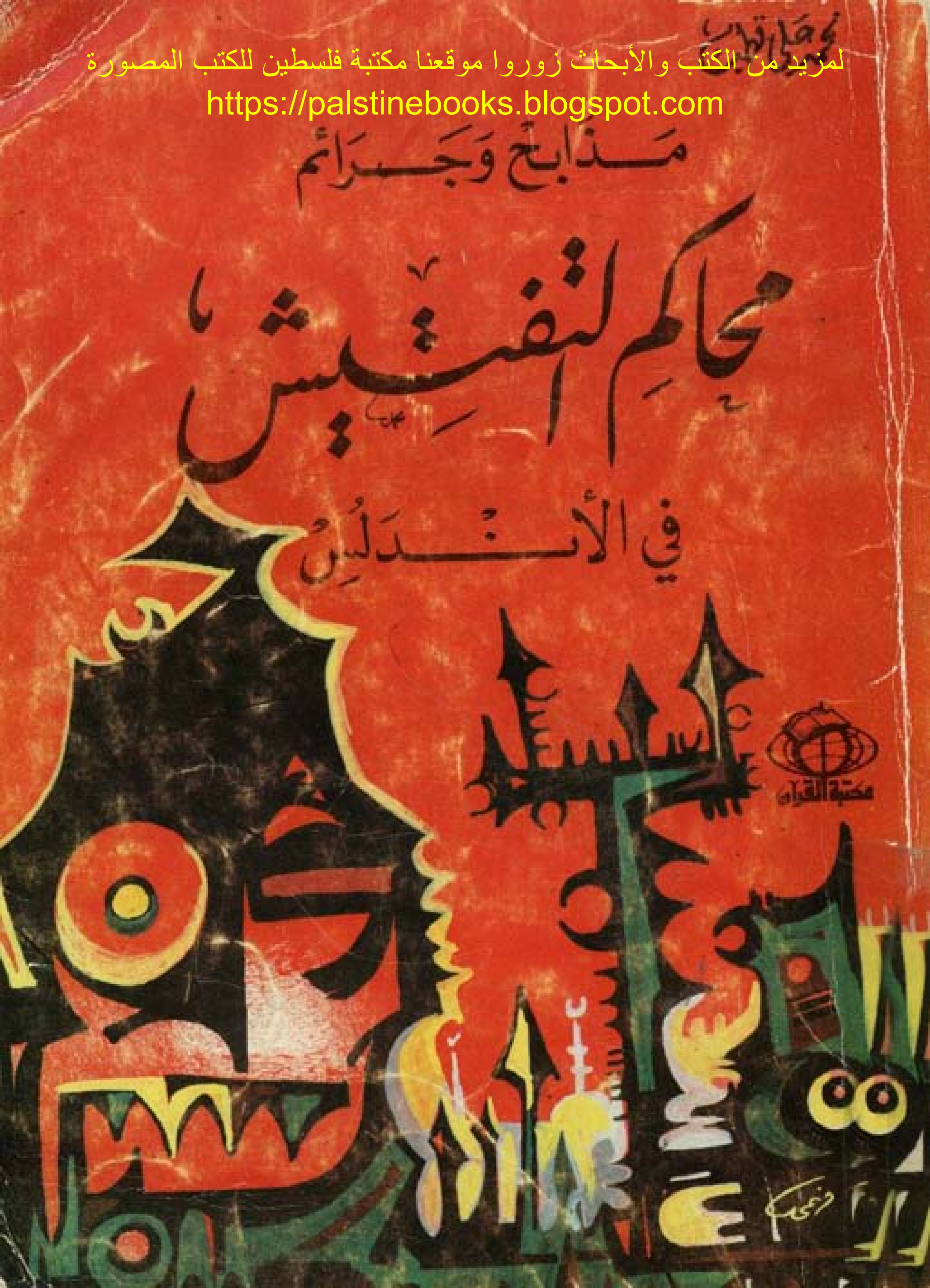

مذابح وجرائم
محاكم التفتيش
في الأندلس
مكتبة القرآن

محمد علي قطب

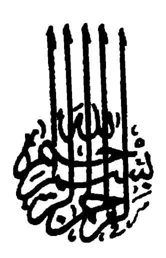
مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس

مكتبة القرآن

للطبع و النشر و التوزيع

٣ شارع القماش بالمرنساوى - بولاق

القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٢



مقدمـــة

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هادى له،

ونشهد أن لا الله إلا الله وحده له شريك، له الملك وله الحمد يحى ويميت وهو حيٌّ لا يَمُوت.

ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبد الله ورسوله، أرسله بالهُدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون؛ فصلاة الله وسلامه على هذا النبىّ الكريم والإمام العظيم أفضل صلاة وأزكى تسليم، وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين.

وَبَعد...

فإنه قد يتساءل الناس عن الداعى إلى إثارة موضوع «مذابح وجرائم محاكم التفتيش فى الأندلس» من جديد، رغم أنه قد مضت عليه عقود طويلة من السنين، وأن الحوافز والبواعث إليه قد زالت وأمّحت آثارها ــ أيضاً ــ !!؟ والأندلس»[1] قد عادتْ إلى نصرانيَّتها !!

والتساؤل فى ظاهرة مقبول غير مردود، ولكنه عند التحقق والبحث يجعلنا فى موقف اصحاب الدعوى لا فى موقف المدَّعى عليه،

(1) الأندلس: وادٍ فى «إسبانيا» وليس إسبانيا كلها.

ذلك أنَّ «فلسطين» كوطن اسلامى ـــ عربى قد انتُزع من أهله وأصحابه، تحت سَمْع العالم وبصره، وبتآمر مستمرٍ تواطأت فيه كل قوى الكُفر على الإسلام وأهله ودياره، مستغلَّةً حالة التقهقر النفسىّ والحضارى التى عصفت بالأمة الإسلامية، أو التى عملت تلك القوى على بذرها وزرعها فى القلوب والعقول بوسائل شتى وأساليب مختلفة، فمهدت لِلْغزو بالزعزعة من الداخل...

وكان من تعتيم الرؤية وقصر النظر ـــ أو العمالة ـــ أن شُغل العرب والمسلمون بالقضية الفلسطينية وجعلوها محور الصِّراع بينهم وبيْن الصهيونية مَدْعومة بالامبرياليّة الرأسمالية الغربية !!!

ونسُوا ـــ أو تناسوْا ـــ أن إسقاط الدولة العثمانية (الرجل المريض) بكل معطياتها السياسية والعسكرية والجغرافية ـــ حتى الإقليمية ـــ كان هدفاً رئيسياً وأساسيّاً فى تحطيم بوابة الشرق : (L·a porte dlopiemt) والوثوب على العالم الاسلامي.

كما نسوا أيضاً ـــ أو تناسوا ـــ النزاعات التى قامت أو تقوم في «كشمير» و «قبرص» و «أفغانستان» و «الصومال» و «أريتريا» و «الصحراء المغربية» ـــ الصحراء الإسبانية[1] !!!

ومع كُلّ تلك الصراعات والنزاعات تتجدد «محاكم التفتيش» بكل حقْدها ومرارتها وفظاعتها، وليْلها الدامس الطويل.. !

ومن العجب أن نظل نحن الاسلاميين، فكراً وحركة، نُوهم أنفسنا بما يسمى بيقظة العالم الإسلامي !!!

---

(١) تنسب إلى إسبانيا رغم البعد الجغرافى والحواجز الطبيعية، نظراً لاستعمارها من قِبل الإسبان فترة زمنية طويلة.

أسأل الله تعالى أن يلهمنا الصواب والسداد، ويوفقنا لما فيه الخير دنيا وآخرة، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

والحمد لله أولاً وآخراً.

المؤلف

محمد على قطب

الفتح الإسلامي ـ أهدافه ومراميه

إن الحديث عن «الأندلس» و «محاكم التفتيش» يجرنا حتْماً إلى الحديث عن «الفتح الاسلامي» عموماً، من غير تحديدٍ بجهةٍ معيّنة و بلدٍ أو ظرفٍ معيّن.

ولقد قيل عن «الحرب والسلام» فى الإسلام الشيْء الكثير مما لا مجال لإعادة القول فيه تكراراً واستجراراً، ولكننا نلحظ بعض الملاحظات التى نرى ضرورة ماسَّة فى إيرادها توثيقاً للأسُس التى قام عليها الفتْح، ومنها انطلق..

نعود بالذاكرة الى يوم «الأحزاب»، حين كان المسلمون يعملون فى إقامة الخطّ الدفاعى عن أنفسهم بحفْر «الخندق»، وقد تألَّبت عليْهم كُلّ القوى المعادية؛ قبليَّةً وعرْقيّةً وعُنْصريّة[1]...، إذْ اعترضتهم كدْية[2]، صخرة صلْدة صَلْبة..، فتناول الرسول القائد «ﷺ» المعْول وضربها بيده الشريفة فجعلها جذاذاً وفتاتا...

وأضاءَتْ برقاً لامعاً وشهاباً ثاقباً تحت وطأةِ المِعْوَل، مرتيْن اثنتيْن!!!، الأولى شرقاً والثانية غرباً، فبشّر النبى «ﷺ» أصحابه بـ «الفتْح» العظيم وسقوط عرشيْ «كِسْرى» و «قيْصر»...

---

(١) اليهود من أهل المدينة، الذين نكثوا عهودهم ونقضوا مواثيقهم مع رسول الله «ﷺ» وتحالفوا مع الأحزاب.

(٢) الكدْية : الصخرة الهائلة.

لقد بَشّر «عليه الصلاة والسلام» أصحابه بالفتْح وهم فى حالٍ يتنافى شكلاً ومضموناً مع البُشرى، اللهمّ إلا من زاويةٍ واحدةٍ وخلفيَّة واحدة، هى : الإيمان، تلك القوة الهائلة التى قارعوا بها الدنيا على مدى قرون طوال، وانتصروا...، وصَدَق من قال : لقد اكتشف الإسلام قوة النفس الإنسانية قبل أن يكتشف العالم قوّة القنبلة الذرية...

بشرهم «عليه الصلاة والسلام» بالفتْح وهُمْ خِلْو من أى أمل فى النصْر على عدوِّهم، فى ذلك الظرف الزمنى المحدود، والصراع الماديّ... (حتي يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نَصْر الله...) وكانوا قد (زُلْزِلُوا زِلْزالاً شديدا)، (وبَلَغَت القلوبُ الحناجر) خوفاً ورعْباً وهلعاً فالتركيز على عامل الإيمان بهدف النصر كان الأساس الذى تبنى عليه كل التوجهات النضالية والقتالية.

حيْثما كان ظُلْم على وجْه الأرض، فالأمة المسلمة مكلفة أن تكافحه وتزيل أسْبابه، لاتملك الأرض وتَذل الرقاب بل لتحقّق كلمة الله فى الأرض خالصة من كل غرض، وتفرض ربوبية الله وحاكميتَه وعدله.

وهذا هو مايُطلق عليه فى الاسلام : (الجهاد فى سبيل الله)، أى الجهاد لتحقيق ربوبية الله للعباد، لتكون كلمة الله العُلْيا، لا بإكراه الناس ليكونوا مسلمين، بل بإتاحة الفرصة لهم ليَخْلصوا من ربوبية الطواغيت، ويملكوا حُريَّة الاختيار دون تدخل فى القوّة الطاغية الضالّة، ويستمتعوا بالعدل المطلق الذى يريدُه لهم الله :

وذلك مفرق الطريق بيْن الجهاد فِي سبيل الله ، والجهاد فِي سبيل الشهوات .

إن قوة الإسلام قوة محررة تنطلق فى الأرض لتدك قواعد الظُّلم والاسترقاق والاستغلال ، وهى لاتنظر فى هذا المجال لجنس ولا لون ولا لُغة ولا أرض ، الناس سواء ، كلهم ناس ...

حيثما كان ظلم فالاسلام منتدب لرفعه ودفعه ، وقع هذا الظلم على المسلمين أو على الذميِّين ، أو على سواهم ممن لايربطهم بالمسلمين عهد ولا اتفاق ...

﴿ الذين آمنوا يُقاتلُون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ .

وأظلم الظلم تعبيد العباد لغير الله وإقامة أرباب يشرعون مالم يأذن به الله ، وحيثما واجه الإسلام الفرد الظالم أو الطبقة الظالمة أو الدولة الظالمة ، واجههم على أنهم جماعة من البشر تظلم جماعة من البشر ، لا على أنهم سود أو حُمْر أو صُفر أو بيض .. ، ولا على أنهم مسيحيّون أو يهود أو نصارى .. ، واجههم بقدْر ما يعطّلون من تحقيق كلمة الله فى الأرض ، ومن تحقيق السلام الحقيقى لبنى الإنسان .

والإسلام يواجه القوى الواقفة فى وجهه بواحدةٍ من ثلاث :

١- الإسلام .
٢- أو الجزْية
٣- أو القتال

فأما الإسلام فلأنه الصورة الأخيرة لدين الله الخالد ، ولأنه الهدى للبشرية جمعاء ، ولأنه الناموس الذى يحقق العدالة الإنسانية الشاملة للجميع .

وأما الجزية فلأنها دليل الكف عن المقاومة ، وتحقيق حرية الدعوة ، وإزالة القوة المادية التى تَصُدّ الناس عنها .

وأما القتال فلأنه فى هذه الحالة هو الرد الباقى على مقاومة كلمة الله عن إصرار وعناد ، وحرمان البشرية من الاستمتاع بما تحمله لها هذه الكلمة من نور وعدْل وسلام شامل كامل لبنى الانسان .

وحين ينطلق الإسلام ليقوم بواجبه فى التحرير والتطهير لا ينسى أن مصلحة البشرية العليا هى هدفه الأول ، لا مصلحة الفاتحين الشخصية ، ولا مصلحة المسلمين الخاصة ، فلا مجال إذن لفكرة قداسة الدولة أو الجنس التى تبيح المحظور ، وتبرّر المنكر ، وتصف الغدْر والنفاق والكذب بالبراعة الساسية ، أو تصف القسوة والجريمة والوحشية بالبطولة الحربية !!!

إن العهد مقدس ، مهما يُفوت على المسلمين من مصالح قريبة ، ومطامح مرغوبة ، وإن الشرف مرعىّ مهما يسبب للمسلمين من خسائر ومتاعب ، وإن الشعور الانسانى ملحوظ ، مهما تكن قسوة المعركة ، وحرارة الضرب والحرْب ..

وقد كسب الإسلام بذلك كلمة ولم يخسر فى النهاية ، كسب الأرواح والقلوب ، وكسب توطيد المبادىء العليا التى جاء لإقرارها فى الأرض ، وعوض فى النهاية مافقده بالمحافظة على العنصر الأخلاقى فى السلم والحرْب من خسائر جُزئية ومتاعب وقتية ، وشهد فى فترة

قصيرة كيف جاء نَصْر الله والفتْح ، وكيف دخل الناس فى دين الله أفواجا .

لقد جعل الإسلام قانونه فى العالم الدولى ، بل العالم الإنسانى هو الوفاء بالعهد :

﴿ **وأوْفُوا بِالْعَهْد إنّ العهْد كان مَسْؤولا** ﴾ (الإسراء - ١٧) .

﴿ **وأوْفُوا بعَهْد الله إذا عاهَدْتُم ولاتَنْقُضُوا الْأيْمان بعد توكيدها وقد جَعَلْتُم الله عليكمُ كفيلا . إنّ الله يَعْلَمُ ماتَفْعلُون .. ولاتكُونوا كالّتى نَقَضَتْ غزْلها من بَعْد قُوَّةٍ أنْكاثا تتَّخِذُون أيْمانكمُ دَخَلاً بَيْنكمُ أن تكون أُمةٌ هى أرْبى من أمة** ﴾ (النحل - ٩١ ، ٩٢) .

فهذه الحجة التى تتخذها « الدولة » فى أوربا لتبرير نَقْض العهود والمواثيق ، حجّة مصلحة الدولة ، ينص عليها القرآن هنا : ﴿ **أن تكون أُمة هى أَربى من أُمة** ﴾ ، وينص على أن هذه الرغبة لاتُبرر نَقْض العهد ، وينهى المسلمين عن الاستسلام لها ، ويشبّه ناقض العهد ذلك التشبية المزْرى : ﴿ **كالتى نَقَضَتْ غَزْلها من بَعْد قُوَّةٍ أنكاثا** ﴾ !!!

الحرْب فى الاسلام هى حرب التحرير البشرية ...

الحرب على عبودية البشر لناسٍ من البشر ، وعلى الطغيان والظُلم والشّطط ، وعلى الخرافات والأوهام والأساطير ، حرب التحرير بكل معانيها وفى كل ميادينها ، الحرب الخالصة من الهوى وفى

الدوافع الاقتصادية والعنصرية والطبقية .. ، الحرب التى يشرف الإنسانية أن تخوضها لأنها تقرير للصفات الانسانية وللحقوق الإنسانية وللمبادىء الإنسانية .

إنها ليست الحرب التى تديرها رؤوس الأموال المجرمة لتربح من وراء الصناعات الجهنميَّة التى تقتات بالأرواح والأجسام ، وتبتلع الحضارات والمدنيات وتحطم النفوس والأخلاق ، أو تديرها الشركات الاحتكارية لحماية مصالحها فى البلاد المستعمرة واستغلال خاماتها من القوى الطبيعية والقوى البشرية وفَتْحْ أسواقها للمنتجات والمصنوعات ، أو تديرها البيوت المالية الربوية لتحقيق أرباحها الفاحشة وضمان الكسْب الحرام ، واسْتغلال الفرص ...

إنما هى الحرب التى تخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، الحرب التى تحمل معها المساواة والعدالة والكرامة لكل كائن بشرى على سطح هذه الأرض وتحققها فى عالم الواقع وعالم المثال ، تحققها فى التشريع والتنفيذ ، تحققها للأسود والأبيض ، والمسلم والمعاهد .

تحققها فى صورة واحدة ، وبأداة واحدة ، وفى مستوى واحد للجميع .

* * *

الفصل الأوّل

- الوجود الإسلامي فى الأندلس
- الارتباط الأمويّ
- الارتباط العباسيّ
- الاستقلال
- الدُّويْلات
- المرابطون ومعركة (الزلّاقة)
- الموحّدون
- المجتمع الأندلسى

الوجود الإسلامي فى الأندلس

تمَّ للمسلمين فَتْح الشمال الإفريقى حتى أقصى المغرب أيام الدولة الأموِيّة ؛ وعَبرَوا إلى (الاندلُس) ـــ إسبانيا ـــ أيام « الوليد بن عبد الملك » سنة (٩٢) هـ ؛ من عند مضيق جبل « طارق » ...

وكان أوّل عُبُورٍ لهم بقيادة «طريف بن مالك المعافرىّ » أو : « ابن مُلُوك » كما نَسَبَهُ وأسماهُ « ابن خلدون » لربْطِهِ بالجذْر البربرىّ ؛ سكان الشمال الإفريقي الأصليين .

ولقد كان هذا العبور حركة استطلاعية أراد منها القائد العام « موسى بن نُصَيْر » دراسة طبيعة الأرض من ناحية ، ومدى المقاومة من ناحية ، والتثبّت من تحالف « يوليان » معه ، ومدى صِدْق هذا التعاوُن .

ثم كان الفتْح بقيادة « طارق بن زياد » ، الذى لايزال المضيق يحمل اسمه إلى الآن ، إذْ كانَتْ مغامرته العسكرية فى الفتْح ضَرْباً من المعجزات .

ثم تبعَهُ « مُوسى بن نُصَيْر » وأَخَذَ اتجاهاً شرقيّاً فى شبه جزيرة « إيبريا » ـــ إسبانيا ـــ ؛ ولقد تمَّ للقائد العام ، ومَوْلاهُ « طارق » ... فتَح أكثر مساحات البلاد ، وأَهَمّ مُدُنها وقلاعها ، فى مُدَّةٍ زمنيَةٍ وجيزة .

الارتباط الأموى

ولقد توالى على تلك البلاد المفتوحة الوُلاةُ من قِبَل بنى « أميَّة » ، وخُطِبَ بآسْمِهِم فى جوامِعِها ، حتى انتهى أَمْر الأمويّين بالمشرق سنة (١٣٢) هـ .

وفى أيام « عبد العزيز بن مُوسى بن نُصَيْر » وَفَدَ الناسُ والقبائِلُ من الشام والعراق ومِصْر وغَيْرِها إلى الاندلس ، فَأَنْزَل « عبدالعزيز » كُلَّ جماعةٍ وقبيلةٍ منهم فى جهةٍ من جهات البلاد ، حسب حاجتها إلى الأرض والزراعة ، وحَسَب حاجةِ الدفاع عن البلاد .

وقام أحد الوُلاةِ من بعد « عبد العزيز بن موسى » وهُوَ : « السَّمْحُ بن مالِك الخولانىّ » أيام الخليفة الراشد « عمر بن عبد العزيز » ــ رضى الله عنه ــ بأعمالٍ إداريّةٍ وعمرانيةٍ كثيرةٍ منها إنشاء قنطرةِ « قُرْطبة » عند وادى النهْر الكبير ...

ولم يكْتَفِ « السَّمْح » بالتنظيم الإدارى والنهضة العُمرانية ، بل عوَّل على متابعة الفتْح ، متخطياً حدود (إسبانيا) إلى (فرنسا) !!!

ففتح جنوب (فرنسا) ؛ وتوفاه الله تعالى وهو محاصِرٌ لمدينة « تُولُوز » [طلّوشة] ؛ وتابع الولاةُ من بعده عمليّة الفتْح ، فغزا « عَنْبَسةُ بن سحَيْم » مدينة : « كراكسون » : [قَرْقشونة] ، ومدينة : « نيم » وغيرها .

أما « عبد الرحمن الغافقى ــ العكّى » فإنه سار إلى « إرْل » ثم إلى « بُورْدو » واستوْلى عليهما ، كما استوْلى من بَعْد على « ليُون »

و« بيزانْسُون » ؛ وفَتَح « تُور » أيْضاً .

وفى سَهْل ممتدٌّ بَيْن « تُور » و« بواتييه » كانت معركة « بلاط الشهداء » التى انتصر فيها المسلمون أَوَّلاً انتصاراً ساحقاً ، ثم صيحَ بهم أنّ الأسلاب والغنائم قد آنتُهِبتْ ... فآرتدّوا للمحافظة عليْها وصَوْنها ، وآضطرب جَيْش « الغافقىّ » أمام جَيْش الافرنج المهزوم بقيادة « شارْل مارْتل » ... ، وعبثاً حاول القائد المسلم أنْ يثبت جنوده ويلمّ شَعْثهم ، فكثُر القتْل فيهم وانسحبُوا بعد أن امتلأ السَّهْل بجثث الشهداء وعلى رأسهم القائد « عبد الرحمن الغافقى » ...

وكان الارتدادُ عن جنوب (فرنسا) والاستقرار فى (إسبانيا) ــ الاندلس ــ .

ومما هُو ملاحظ ومُستَغْرب فى حركة الفتْح هذه ، أَنّ هؤلاء الأمراء رغم آندفاعهم ، وقُوَّة شكيمتهم وعزيمتهم ... لم يُعوِّلُوا على (تطهير) البلاد الاسبانية من بقايا (القوط) و(النافاريين) الذين لجئوا إلى سُكْنى القسْم الشمالى ، وخصوصاً الغربىّ منه ، متحصنين بالمناطق الجبليّة ، وكانوا من بَعْد سبب أحداثٍ وفِتنٍ واضطرابات دائمة ، ونواة القوّة المعادية النامية حتى أمكنهم طرْد المسلمين من الأندلس !!؟؟

ولاتَسَلْ عما كان يقوم من الاضطرابات والثورات الداخلية فى تلْك البلاد التى فتحها المسلمون ، سواء فى (اسبانيا) أو فى (البرتغال) ؛ لما كان من حروب داخليةٍ لاتنقطع بيْن القبائل ، المضَريّة واليمنيّة ، والشاميّة والمصريّة ، والبرْبَر والمولدين ، أو بين جملة عناصر منهم ضِدَّ آخرين ، مما أودى بحياة الآلاف من المسلمين ، وكثير من قادتهم وأمرائهم ...

الارتباط العباسى

واستمرَّ تعيين الولاة مِن قبل بنى « أُميّة » بالمشرق حتى سنة (١٣٢) هـ ؛ إذ غُلِبُوا على أَمْرهم وتولّى الخلافة بنو « العبّاس » ، وأمْعَنُوا فى بنى « أميّة » قتلاً ...

فَفَرَّ « عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عَبْد الملك » إلى الأندلُس ، ودَخَلهَا سنة (١٣٨ هـ) ؛ وعُرِف بـ « عبد الرحمن الداخلِ » ولُقّب بـ « صَقر قريْش » ، فكان صاحب آمال كبار ، وتمّ له أن أصبَحَ أمير البلاد ، عِوَضاً عن أمرائها من قِبَل العباسيين ؛ وسار إلى « قُرْطُبة » واستوْلى عليها ، وبايعتْهُ البلاد أميراً ، وشادَ مُلْكاً لبنى « أُميّة » فى الأندلُس .

وكان يدعو أوّلاً للخليفة « المنصور » العباسى ، ويخطب باسْمِه على المنابر ، وهُو الذى لقّبه بـ « صَقْر قُرَيْش » .

فلمّا توطّد سلطانه قطع الدعْوة له ، وأسقط اسمه من الخطبة ، واستمرّ فى الحُكم إلى أن مات سنة (١٧٣)هـ ، فتولى الإمارة بعده ابنه « هشام » .

وتتابع ولاةُ بنى « أميّة » على الأندلس ــ إسبانيا ــ والبرتُغال ــ إلى أن انتهى أمرهم سنة (٤٢٨)هـ .

الاستقلال :

وحَدَثَ فى أيام « عبد الرحمن الناصر » سنة (٣١٧)هـ ، أن أَعْلَنَ خلافته فى الأندلس، وذلك بمنشورٍ أرسله إلى جميع الجهات ،

وتسمّى بـ « أمير المؤمنين » ، وضُرِبت باسْمِهِ النُّقود ، وعُرِف مَنْ جاء بعده من بنى « أميّة » باسْم (الخليفة) .

وقد انتشر فى الأندلس العُمْران أيام بنى « أميّة » ، ونشطت الحركة الفكرية ، وكثر العلماء والشعراء والأدباء ...

وكانت لحكومتهم قوّة مرهوبة حتى انتهى أمْر البلاد إلى تفرُّق الجماعة وانقسامها ، وذلك بسبب استكثار الأمويين فى الأندلس من عُنْصر البربر الذين شايعوهم وأيّدوهم وساعدوهم على بنى « العباس » ، واستكثارهم أيضاً من شراء المماليك الصّقالِبَة والأتراك وغيرهم ؛ لاسيّما فى أيام « عبد الرحمن الناصر » ، حتى أصبحت لهم الكلمة المطلقة والنافذة فى البلاد ، وانتقل إلى أيديهم الحكم الفعلىّ .

وكانت نفوس كثيرٍ منهم تتحدّث فى قراراتها وأعماقها بتخطّى الرقاب ، والتجاوُز ، وطَرْق كل باب للوصول إلى سدَّة الحكم وكُرْسىّ السلطان .

ولم يكُن يَقْعُد بهم عنها إلّا ما كان يُحيطها من رمْح مرفوع ، وسيْف مَسْلول ، وعظمةٍ قائمة ، وسُلطانٍ قدَمُه فى الأرض ورأسه فى السماء .

وعلى كل حال ... فقد كان لهم التصرف المطلق فى شؤون الدولة الداخلية .

الدويلات :

ولقد خالف الأمويّون فى الأندلس آباءَهم فى دمشق ، فى محافظتهم على عصبيّتهم العربية ، فضعفت بذلك شوكة العرب ، ونقموا

على السلْطان ؛ ومازالوا يترقبون الفرص للخروج عليهم ، حتى قام « ابن أبى عامر » — المنصور — وزير الحاكم) ابن (الناصر) ؛ وكان من العرب المنتصرين لعصبيّتهم ، فأخذ بدهائه وذكائه يوسّع الهُوَّةَ بَيْن العناصر المتغلّبة ، من صقالبة وأتراك وبَرْبر ، ثم بالإيقاع بهم شيئاً فشيْئاً .

وكان فى أثناء ذلك يَسْتَقْدم رجالاً من بَرْبر المغْرب من قبيلتىْ : « زناتة » و« مَصْمُودة » وغيْرهم ، وكان يُولِّيهم مناصب الدّولة ، حتى إذا شعروا بعده بضعف الخلفاء ومن والاهُم ... أخذوا يخرجون على دولتهم ويستقلُّون بالأطراف .

وأوّل من بدأ منهم بالاستقلال :

« بنو عبّاد » فى « إشبيلية » ، ثم بنو « زيرى » فى « غرناطة » ، وبنو « الأفطس » فى « بطليوس » ، ثم بنو « ذى النوّن » فى « طُلَيْطِلة » ، ثم بنو « عامر » فى « بَلَنْسِيَة » ، ثم بنو « هودٍ » فى « سرْقسْطة » ، وبقيتْ « قرطبة » فى يد بنى « حمود » ... ثم بنى « جَهْوَر » .

ومازالُوا حتى غَلَبَهُم على أَمْرهم الفرنجةُ من الشمال ، ثم المرابطون من الجنوب .

وأخذ ملوك وأمراء الطوائف يُغير الواحد منهم على مابيد الآخر طمعاً ، فكان ذلك سبباً فى ضَعْفِهِم حتى آضطرّوا إلى دفْع الجزية إلى « اَلْفونس » — الأدفونش — ؛ ولاقوا من مسيحيِّى الإسبان الذُّل والهوان ، وصَغُرَ أمرُهُم ، وضاقَتْ صُدُورهم مِنْ غدْر ملوك الإسبان وأمرائهم وسوء معاملتهم ، فرأوا استدعاء المرابطين من المغرب لنجدتهم ؛ وكان صاحب هذا الرأى هُوَ « ابن عبادٍ » صاحب « إشبيلية » .

المرابطون ومعركة الزلاقة

فَهَمَّ « يوسف بن تاشفين » سلطان المرابطين بالمغرب لِنَجْدة مسلمى الأندلس ، وعَبَرَ إلى الجزيرة سنة (٤٤٩)هـ . بجيوشه الجرارة ، بقيادة قائده الكبير « داود بن عائشة » ؛ وتقابلت جيوش المرابطين بجيوش مسيحيِّى الإسبان قُرب « بَطْليوس » .

وكان يَرْأَس الجيش الإسبانىّ « أَلْفُونْسو » ملك « قشتاله » ــ كاسِلْ ــ ؛ فكانت موقعة هائلة آنْتَصَرَ فيها المسلمون انتصاراً باهراً ، وعُرفت بواقعة : « الزلّاقة » ، وهَرَب « أَلْفونْسو » وهو جريح فى يده ، جرْحاً بليغاً .

ثم اصطلح الفريقان ، ورُفع ظُلْم الاسبان عن مُسْلِمِى الأندلس ، ولم يدفعوا لهُم الجزية المعتادة كل سنة ، وتسمّى « يوسف بن تاشفين » بعد واقعة « الزلاقة » باسْم : « أمير المسلمين » .

وقد غَنِم المسلمون الشئْء الكثير جدّاً من الأموال والأنفس فى هذه الموقعة ، فتركه « ابن تاشفين » كله لأهل البلاد ، ثم ترك الأندلس عائداً إلى بلاده .

ثم عاد « ابن تاشفين » إلى الأندلس مرةً أُخرى سنة (٤٦٨)هـ ، لأن أهلها شكوْا إليْه من كثرة الضرائب التى كان ملوك الطوائف يحصّلونها منهم ، فخافه أولئك الملوك الصّغار ، واتّفقُوا مع ملوك وأمراء المسيحين الإسبان عليْه .. ، ومنعوا جيوشَهُ من أخذ المواد الغذائية والعلف ، وما يلزمها ؛ ولكنه استوْلى على بلادهم كلّها .. !

وأصبحتْ كل بلاد الأندلس تحت سيطرته إلا « سرقسْطة » ، فقد بقيتْ لبُعْدها فى « بَنى هُود » .

الموحدون :

ومن ثمَّ أَضْحت البلاد فى يد المرابطين ، وبقيتْ فى حَوْزتهم وتحت سلطانهم حتى أَفَلَ نجمهم فى المغرب وزالت دولتهم ، فى أواخر القرْن الخامس الهجرىّ ، وقامت مكانها دوْلةُ الموحدين .

وقد أَرْسل أمير دولة الموحِّدين ، أمير المؤمنين « عبد المؤْمن بن علىٍّ » إلى الأندلس جَيْشاً للفتْح ، فتغلّب على الجزء الغربىّ منها ، ثم حاصر « أَلْمُرْية » فآستغاث أهلها بـ « أَلْفونسو » ، فأرسل « محمد بن مردنيش » على رأْس جَيْشٍ خليط من المسيحيين والمسلمين ، فهزمهم « عبد المؤمن » ، وتمَّ استيلاء الموحّدين على الأندلس أيام ابنه « يوسف » ـــ أمير المؤمنين ـــ ، فَأَصْلح وشَيَّد فى « إشْبيلية » العمائر ، وبنى جامعها ، وأقام جَسْرها .

وآسْتمرَّ ابنه « المنصور » من بعده مُصْلِحاً ...

وقد حارب « المنصور ـــ يعقوب » جيوش « أَلْفُونْسو » وجموعه من ملوك وأمراء النصرانية فآنْتصر عليهم انتصارات باهرة فى واقعة « الكرْك » الشهيرة : (ALQRCOS) ؛ وصار يفتحُ الحصون والبلاد مما كان فى أيديهم ... ، واستمرّ يتقدَّم فى الفتْح فطلبُوا إليْه عَقْد الصلْح ، فهادنهم على خَمْس سنين ، وقد كان ذلك سنة (٥٩٢)هـ .

وكانت غنائم المسلمين شيْئاً كثيراً ، عدا مَنْ قتلوهم فى تلْك المعارك ، حتى قيل فى بعض الروايات إنَّهم بلغوا مائة أَلْف قتيل ؛ وباع المسلمون الأسير بدِرْهَمٍ لكثرتهم ، والسَّيف بنصف دِرْهم ، والحمار بدرهم ، والفرس بخمسة دراهم :

ثم استوْلى « المنصور » بعد ذلك على « طلمنقة » ؛ ثم قَصَد « طُلَيْطلة » عاصمة « ألفونْسو » وحاصرها ، وكاد ينْزل مَنْ فيها على إرادتِهِ ، غير أَنّ أُمّ « ألفونْسو » وبناتِهِ وحرمه نَزَلْن وآسْتَغثْن بـ « المنْصور » ومروءته ... ، فأكرم مثواهنّ وأعادهُنَّ إلى مقارهِّنَّ مُعَزّزاتٍ مُكرَّمات ، وعاد هُو إلى بلاده بالغنائم العظيمة .

[وهذه واقعة أثبتها مؤرخو الأندلس المسلمون والنصارى على حدّ سواء ، وهى بالضرورة تَقْتضى المقارنة بما فعله مسيحيُّو الإسبان — بعد ذلك — بنساء المسلمين وبناتهم وأطفالهم وشيوخهم من الاضطهاد والتعذيب والتّحْريق !!!]

ثم مات « المنصور — يعقوب » سنة (٥٩٥)هـ ؛ فتولّى ابنه « محمد النّاصر » — أبوُ عبد الله — من بعده ؛ فقصد الأندلس سنة (٦٠٩)هـ بجيوشٍ جرارة قدّرها البعض بستمائة أَلْف مُقاتل ...

وأعجبت « الناصر » كثرة جيوشه ، فأساء معاملة أهل الأندلس ، وفَتَك بكثيرٍ منهم ، ويُقال بأنه فعل ذلك بإيعاز من وزيره « ابْن جامع » ، الذى أراد أن تكون له وحده الكلمة العلْيا ، فَخسِر عطف الناس والمواطنين والعارفين بمسالك البلاد ومناطقها الوعرة ، ومخابئها الطبيعيّة ...

المجتمع الأندلسى :

وأَعْلَنَ (البابا) الحرْب المقدّسة الصليبية ضِدَّ جيوش المسلمين ...

فهرعت جيوش النصرانية من (إيطاليا) و(فرنسا) و(ألمانيا) ، واتحدت مع القوات الإسبانية ، واستعدّوا لِلِقاء « الناصر » فى سهول « نافادو » و« تولوزا » — وهى غير « تولوز » المدينة الفرنسية — ، وهى عبارة عن قرية تقع على بُعْد مائةٍ وأربعين كيلو متراً إلى الشمال من « قرطبة » ، ويعرفها المسلمون باسم : « العِقاب » لكثرة مافيها من عقباتٍ كانَتْ سبباً فى خذلانهم وآنتصار جيوش النصارى المتّحدة عليهم انتصاراً كبيراً ، وتمزقَتْ جيوش « الناصر » المتخاذلة مع أهالى البلاد .

هكذا قيل عن العقبات .. !! كذريعةٍ وسبب .

ولكن الحقيقة هى أَنَّ ضعف معنويّات المسلمين ، وسُوءَ القيادة ، وإيثارهم الدُّنيا على الآخرة ... كُلّ ذلك أَوْدى بهم .

ومات « الناصر » بعد موقعة « الْعِقاب » ، فبايع أَهْل المغرب ولده « يحيى » فَلَجَأَ أخوه « المأمون » — ابن الناصر — إلى ملك « قشْتاله » يستنصرهُ على أخيه « يحيى » ، وعلى قَوْمه الموحّدين ، فتم الاتفاق بينهما على شروطٍ ، منها : أن يعطى « المأمون » مَلِكَ « قشتالة » عشرة حصونٍ يختارها هُوَ ، مِمّا فى يد المسلمين ، ومِمّا يلى بلاده ، وأَنْ تُبْنى للنصارى كنيسة فى (مراكش) ؛ و .... قبل « المأمون » !!!

فجهَز له ملكُ « قشتالة » جَيْشاً من الاسبان دَخَلَ به أَرْض المغرب ... ، وهناك جمع « المأمون » شيوخ الموحدين وقَتَلَهُم صَبْراً ؛ وكان عددهم نيِّفاً وأربعة آلاف نفس ، فثارت الأطراف عليه ؛ وضعُف أمر الموحدين .

وأخذ الاسبان فى الاستيلاء على مُدُن الأندلُس واحدةً بعد الْأُخرى ، فاستوْلوا على « قرطبة » ، ثم على جُزُر « البلْيار » ، و« بلَنْسية » ؛ كما استوْلى أسطولهم البحرى على « سبْتَة » وغيرها من ثغور المغرب ، ثم استوْلوا على « إشبيلية » ...

ومازالُوا يستوْلُون على بلاد الاندلس وحصونه واحداً بعد واحد ، حتى لم يَبْق فى يد المسلمين غير « غرناطة » بقيتْ فى يد « بنى الأحْمَر » لِمنَعَتِها وكثرة أهْلها ، فقد كان يلجأ إليْها كلّ أهالى البلاد التى يفتحها الاسبان ، وكانت « غرناطة » تدفعُ الجزية غالباً لملوك « قشتالة » .

فضيحة لم يأت الدهر بمثلها :

وآستمرَّ مُلْك « بنى الأحمر » قائماً فى « غرناطة » ... ، إلى أن دَبّ الخلاف على المُلْكِ بيْن « أبى عبد الله بن أبى الحسن » وبيْن عمّه « الزّغل » فانتهى بتغلُّب الإسبان على « غرناطة » سنة (١٨٩٢)هـ ؛ وكان ذلك نهاية أمر المسلمين بالأندلس .

ومما يُنْسبُ لابن حَزْم فى تصوير التّهافت السياسى الإسلامى فى الأندلس آنذاك ، قوْله : [فضيحةٌ لم يأْتِ الدهر بمثْلها !!! أربعة رجالٍ

كُلٌّ واحدٍ منهم أمير المؤمنين !!! واحد بإشبيلية ، والثانى بالجزيرة الخضراء ، والثالث بمالْقَة ، والرابع بسَبْتةِ .

وأُصْبَح العرب والبربر فى خلافٍ مُسْتديم والجميع فى خلاف مع أَهْل المغرب الأقصى ، وفى حروب مع الأُمم الإسبانية والبرتغالية] .

بذلك الانقسام والتخاذل ثم استرسالهم فى ملاذّهم واستسلامهم لشهواتهم ، واستنامتهم إلى الراحة ؛ ضعفَتْ فيهم الحميّة الدينيّة والعصبيّة القومية حتى ضعفت قواهم ، فكان جزاؤهم أن فقدوا الفردوْس الأندلسّى .

* * *

الفصل الثاني

- ☐ السلطة البابوية
- ☐ العالم الإسلامي
- ☐ بداية النهاية

السُّلطة البابوية

قُلْنا فيما سَبَق إنّ الاسبان قد استوْلوا على بلاد الأندلس واحداً بَعْد الآخر ، ولم يَبْق فى أيدى المسلمين سوى « غرناطة » التى كان يحكمها « بنو الأحمر » ، لمنعتها وكثرة أهْلها ، ثم إن الخلاف قد دَبَّ بَيْن « أبى عبد الله بن أبى الحسن » وبيْن عَمِّه « الزَّغل » ، مِمّا أدى إلى تغلُّب الاسبان أيْضاً على « غرناطة » ، وانتهاء أمر المسلمين فى الأندلس .

وبيان ذلك :

أن المسلمين رأوا أن يَعْرضُوا على « الزّغل » وابن أخيه اقتسام المُلْك ، ويستقل كُلّ واحدٍ منهما بإدارة قِسْم ، لئلا يتمادى العدوّ فى انتهاز الفرص السانحة ويوقع بالمسلمين .

فَخَرج « الزّغل » إلى وادى « آش » ، واستولى ابن أخيه « أبو عبد الله » على « غرناطة » ـــ وكان حليفاً للاسبان القشتاليين .

إلّا أن الاسبان لم يكفُّوا عن بثّ دسائسهم ، فأرسلوا إلى « الزّغل » من يزيد نار الفتنة أواراً بينه وبين ابن أخيه ، فسار معهم لحربه ، وكان « فرديناند » غاضباً عليه وحاقداً لأنه لم يسلّم له حِصْن الحمراء .

وسلّطوا على « الزّغل » رجُلاً من بنى الأحمر اسمه « يحيى » ـــ كان قد تنصّر ويعيش فى « إشبيلية » ـــ فزيّن له التنازل عن وادى

« آش » لـ « فرديناند » نظير مالٍ كثير والذهاب إلى بلاد المغرب ... ، فقبل وقبض المال وذهب إلى « فاس » الذى نقم عليه سلطانها لمؤازرته النصارى ، فصادر أمواله ، وسَمَلَ عينيْه وسجنه حتى مات .

[و« فرديناند » المذكور آنفاً هُو « فرديناند » ـــ الثاني ـــ ملك « نافارا » و« أراغون » ، الذى تزوَّج من « إيزابيلا » ملكة « قشتالة » .]

أما « أبو عبد الله محمد » ابن أخى « الزّغل » فمازال يدفع جيوش الأعداء عن « غرناطة » ، ويستميت فى الدفاع حتى أَعْلَنَهُ أهلها بعجزهم ، وأنهم يقبلون شروط الصُّلْح التى عرضها « فرديناند » و« إيزابيلا » ؛ وكان (البابا) فى كل ذلك مُباركاً ومُشَجِّعاً ، ولأوّل مَرَّةٍ فى تاريخ الصراع الإسلامى النّصرانى فى الأندلس ...

فاّضطُرَّ « أبو عبد الله » أَنْ يُسلِّم مفاتيح « غرناطة » إلى « فرديناند » فى الثانى من ربيع الْأَوّل سنة (٨٩٧)هـ ، وهذا اليوْم هو آخر أيّام الحكام المسلمين فى الأندلس الذى استمر زهاء ثمانية قرون ، منذ عام (٩٢)هـ .

وها جَرَ « أبو عَبْد الله » إلى المغرب وأقام فى « فاس » ، وعاش فيها واحداً كعامّة الشعب ، إلى أن وافاه الأجل عام (٩٤٠)هـ ؛ وبقى نسلُهُ فيها حتى سنة (١٠٣٧)هـ ، يُصْرَف إليهم من أوقاف المسلمين المرصودة على الفقراء والمساكين .

* * *

العالم الإسلامى !!

وتسألنى عزيزى القارىء :

أين كان العالم الاسلامى بقضّه وقضيضه والمسلمون فى الأندلس يَنْتَهُون على هذه الصورة ... الفاجعة ؟؟

تقول رواية التاريخ فى الإجابة على هذا السؤال إن مِحْنة مسلمى « غرناطة » كانت أيام السلطان « بايزيد » ـــ الثانى ـــ العثمانى ، فاتفق هو و« قايتباى » سلطان مِصْر حينئذٍ على مساعدتهم ، فيُرْسل « بايزيد » أسطولاً إلى شواطىء إسبانيا ، كما يُرْسل « قايتباى » جَيْشاً من جهة إفريقية ...

وبينما الاستعدادات جارية لتنفيذ الخطة ، شُغل « بايزيد » بفتنةٍ داخليّةٍ بَيْن أولاده : « كركود » و« أحمد » و« سليم » ، ووقوع الحرب بينهم ، فاضطر « بايزيد » للتنازل عن المُلْك إلى آبنِهِ « سليم » .

أما « قايْتباى » فقد أرسل له « فرديناند » و« إيزابيلا » سفيراً يُسمّى السنْيُور « بطره مارتير » ، فراح بمهارته يقنع « قايتباى » بالعدول عن إرسال جيْشه لمساعدة المسلمين ؛ ونجح « بطره مارتير » فى مسعاه .

وآكْتفى « بايزيد » و« قايتباى » بإرسال الرسائل والكُتُب إلى « فرديناند » و« إيزابيلّا » ، وإلى (البابا) ، وإلى ملك « نابُولى » طالبين فيها ـــ بالطُّرُق الدبلوماسيّة ـــ عدم إرهاق مسلمى الأندلس ـــ « غرناطة » ـــ ؛ وكأنما هذه الكُتُب كانتْ ـــ فيما بعد ـــ لتأجيج

نار التعصُّب فى قلْب « فرديناند » و« ايزابيلا » وبمباركة (البابا) ، ضِدّ المسلمين .

بداية النهاية :

ولم يكتف الإسبان بالاستيلاء على الأندلس ، واستعادتها من أيدى المسلمين ، وطرْدهم من آخر معاقلهم فى « غرناطة » ، بَلْ سوَّلتْ لهم أنفسهم ومطامعهم أن تمتد أيديهم إلى شواطىء المغرب العربى ، فحاولُوا فى بعض السواحل التونسية والجزائرية والمغربية أن يَجْعلُوا لهم قدماً توطئةً لما هو أكبر وأعظم .

لكن ...

كان لأربعة أخوةٍ من تُجّار الأتراك العثمانيين بعض السُّفُن ، فكانت مراكبُ الإسبان تعبَث بها ، فاتفق هؤلاء الأربعة مع سلطان تونس « محمد الحفصى » على أن يعطيهم ثَغْراً من ثغوره يلجئون إليه بسفُنِهم ويتعقَبون سُفُن الاسبانيين ، ويمنعوهم من التطاول على بلاده ، ويعطوه فى مقابل ذلك خُمْس مايغنمونه .

وكان « خضر » ـــ أحد هؤلاء الاخوة ـــ رجُلاً فى منتهى الشجاعة ، ويعرفه الإفرنج بِـ « ذى اللِّحية الحمراء » [بارْبارُوسّا] ؛ وكانت له معرفة تامّة بالطرق البحريّة ، فأخذ يتعقّب سُفُن الاسبانيين حتى أخذ منهم « بجاية » ، ثم استردّ ثَغْر « الجزائر » سنة (٩٢٢)هـ ، وبعث بمفاتيحها ، مع هدية نفيسةٍ ، إلى السلطان العثمانى « سليم الأول » فعيّنَهُ السُّلْطان وزيراً على الجزائر ، وبعث إليه بأسطولٍ من أساطيله ، مع فرقةٍ من العساكر العثمانية ، فاستوْلى على كل البلاد الجزائرية بهذه القوّة .

وأخذ أسطوله يجوب شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، فكان يلقى الرعْب فى قلوب الأوروبيين ، ثم ساروا إلى سواحل إسبانيا وثغورها وأنقذوا كثيراً من المسلمين الذين كان الاسبان يضطهدونهم أبشع الاضطهاد وأفظعه ، ويذيقونهم ألوان العذاب ، فانضم إلى أسطوله كثير منهم ، وأبْلوْا بلاءً حسناً فى حروبهم ومصادماتهم مع الأسطول الإسبانى الذى كان يقوده أميرهم البحرى : « أنْدريا دوريا » .

ومن ثم عُرِفَ « خضر » ـــ أو : « باربار وسّا » باسم « خير الدّين باشا » ، وعيّنه السلطان « سليمان القانونى » أمير البحرية الأكبر للأسطول العثمانى ؛ واشتهرت الدولة العثمانية فى أيامه بحروبها وانتصاراتها على جميع أساطيل أوروبا مجتمعةً .

ولوْلاه لتغلّبت إسبانيا على جميع الشواطىء المغربية ودُوَلها أيام الملك « شارلكان » الذى جمع كلمة أوروبا على حَرْب المسلمين برّاً وبَحْراً ... ، لكن السلطان « سليمان » انتصر عليهم فى البرّ ، و« خير الدين باشا » فى البَحْر ، وتمَّ للعثمانيين الاستيلاء على « طرابلس ـــ الغرب » سنة (٩٥٠)هـ ، ثم على تونس سنة (٩٨١)هـ ؛ وبذلك تم لهم الاستيلاء على معظم الشمال الإفريقى ، وأصْبح أسطولهم سيِّد البحر الأبيض المتوسط .

ويشهد التاريخ أن الأتراك العثمانيين مع ماوصلوا إليْه من بسط النفوذ والسلطان لم يُكْرهوا أهالى البلاد المفتوحة على اعتناق الاسلام ، وقد كانوا قادرين على ذلك ... ، على عكْس مافعله « فرديناند » و« إيزابيلا » اللذيْن قاما بحملة آضطهاد وحشية فى وجْه مسلمى الأندلس ، لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، مستخدمين كل ألوان العذاب كى يخرجوا من دينهم !!!

الفصل الثالث

☐ **شروط تسليم « غرناطة » .**

المراحل : التنصير ، التهجير ، التدجين والاسترقاق .

ديوان التفتيش ، محاكم التفتيش ، السجن والتعذيب ، الحرْق .

☐ **الأعداد بالأرقام ..**

☐ **حملة الاضطهاد الوحشية فى إسبانيا والبرتغال .**

☐ **المباركة الإلهية أو بركة البابا المقدسة .**

شروط تسليم غرناطة !!

كانت شروط تسليم « غرناطة » ــ على يد « أبى عبد الله » ــ سبعةً وستين (٦٧) شرطاً ؛ أُمِّنوا فيها على أنفسهم ودينِهم وأموالهم وأعْراضهم وأملاكهم وحُرِّيتهم ، وإقامة شعائرهم ، واحترام مساجدهم ومعابدهم وفكّ أسراهم ، وإجازة من يريد الهجرة منهم إلى بَرِّ الفدْوة [المغرب] ، وإعفائهم من الضرائب والمغارم سنين معلومة ...

وغير ذلك من الشروط التى لم ينفَّذ منها ولاشرط واحد بعد الاستيلاء على « غرناطة » ــ مباشرة ــ ، لتمادى الاسبانيين فى تعصُّبهم الحاقد ؛ ولقد أتَوْا ما أتَوْا باسْم « المسيح » ــ عليه السلام ــ !!!

ولننظر إلى أنظمتهم الكهنونية التى رتبوها لاضطهاد المسلمين وأسموها باسماء مختلفة متعددّة ، كلها مستوحاة من خلْفيّةٍ دينيّةٍ متعصّبة ذميمة؛

١ ــ (فرسان الهيكل)

٢ ــ (قلعة رياح) .

٣ ــ نظام (مارى يعقوب) .

٤ ــ نظام (مارى جرجس) .

٥ ــ نظام (سيدات الفأس) .

وكان خاصاً بالنساء ... ــ حتى النساء ــ !!!

ومِمّا زاد فى تَعَصبِهم ماكان يُصْدرُه البابوات من المنشورات ضِدَّ المسلمين ، لاسيّما بعد أن فتح الأتراك العثمانيون « القسطنطينية » — (استامبول) — سنة (٨٥٧)هـ .

ولما ثار جماعة من (البيّانين) — وهم من مسلمى الأندلس كانوا فى « غرناطة » ، عرفوا بعزّتهم ونَخْوتهم ، وفتكُوا ببعض الحكام — قمع الاسبان تلْك الثورة بكُلّ قسوةٍ وغلظة .

وفى سنة (١٥٦٣)م ، ثار « فرج بن فرج » من سلالة « بنى سراج » ولجأ إلى جبال « البشرات » وتبِعه عدد غير قليلٍ من أهل « غرناطة » ؛ وكان من بينهم : « هادونَنْدو دوفْلور » — وكان من نَسْل خلفاء « قرطبة » ، فنادوا به سلطاناً عليهم باسم : « محمد بن أمية » ، وعمت الثورة كل نواحى جبال « البشرات » ، واستمرّتْ الثورة سنتيْن ، وهى فى منتهى شِدَّتها ، وأَبْلى فيها الثوار بلاءً عظيماً ، ومات فيها خلْق كثير من الطرفيْن ...

ثم خلع المسلمون « محمد بن أميّة » لهوادتِهِ .. ، وولّوا أمرهم أحد زعمائهم المعروف ببسالتِهِ وُشجاعته وإقدامه ، واسمه « عبد الله بن أبيه » .

غلبة : وظل المسلمون فى ثورتهم حتى غلبتْهم كثرة الاسبان فى نهاية الأمر ، وشتّتُوا جموعهم ، وأعملوا فيهم القتْل والتحقيق والنكال ، وعلّقُوا رأس « عَبْد الله » على أحد أبواب « قرطبة » ؛ وبقيت الرأس معلّقة عليها ثلاثين سنةً !!!

واشتد الإسبان فى مطاردة المسلمين على ماكان بهم من شدّة فى تعصُّبهم مما دعاهم للثورة عليْهم .

المعذبون :

ويقدّر بعض المؤرخين عدد مَنْ عُذِّب من المسلمين بعد سقوط « غرناطة » بثلاثة ملايين نسمة ، قُتل من قُتل وحُرق مَنْ حُرق ؛ ونجا بنفسه من نجا بما معهم من صناعةٍ ومعرفة كبرى بالزراعة والتجارة ، وخربتْ « غرناطة » و ... الأندلس ، وأوحشت من أهلها .

أمران أحلاهما مر !

واضطر من بقى من المسلمين فى الأندلُس ممن لم يقدروا أن يهاجروا إلى بلاد إسلامية تحميهم أن ينتصرّوا ، وأن يتدجَّنُوا وعُرفوا بـ «المدجّنين : Mudejares ؛ ومع ذلك أُسىء الظن بهم وعُوملوا أسوأ معامله .

بذور العلم والفن من جديد !

أما من هاجر إلى بلاد المغرب فحملوا معهم علومهم وفنونهم وصناعتهم ، فنهضت بهم الزراعة فى « تونس » ، وظهرت الصناعة ، ونَشطت أوجه الحضارة ، وعمرت الدّيار ، وشيدوا الأبنية المختلفة على الطراز الأندلسى ، وعلى أروع شكل هندسى ، ولاتزال إلى الآن كثير من الاسماء الأندلسية معروفة بيْن الأسر التونسية .

أما من اضطر إلى البقاء فى اسبانيا والبرتغال من رجال الفن من المسلمين واليهود فقد عُوملوا معاملةً يأنف منها العبيد الأرقاء ـــ ، واضطرّهم الاسبان لنحْت التماثيل فى الكنائس وبنائها وتجديد بعض الآثار الفنيّة الاسلامية مما لايمكن لغيْرهم عمله ، وقد بقى الكثير من آثارهم يملأ دور الآثار بإسبانيا من نحاسٍ مكَفت بالذهب والفضة والعاج المنقوش .

المغاربة السود :

وبقيت فى البلاد بقيّة مِمّن تَنَصَّر يسمونهم : « مُورسْك : Mauresque » (أى : المغاربة السُّود) اندمجوا فى الأسبان والبرتغال وتكلمّوا لُغَتَهم ، ولكنّهم حافظُوا على لغتهم العربية من جهةٍ أخرى ، فكتبوها بالأحرُف اللاتينية ، وتسمّى : « الخميادو » ؛ ولاتزال فيها كتب كثيرة مكتوبة بالأحرف اللاتينية .

وقد أصبحت لغةً أخرى جديدة غير العربية لما دخلها من التحريف والتصحيف ، كشأن اللغة المصرية القديمة حين كتبت بحروفٍ إغريقية ، ودخلها مادخلها من التغْيير ...

* * *

بؤر جرثومية فى جسم الأمة الإسلامية

ولقد كان للانقسام الذى حدث فى جسم الأمة الاسلامية الأندلسية بَيْن قبائل العرب أوّلاً ، وبيْن العرب والبربر وغيرهم من العناصر الأخرى ، وبين أفراد الأُسر المالكة ، وتهالكهم على الملذات والشهوات ، وغير ذلك من عوامل الضعف هى التى مكّنتْ لجراثيم الإسبان التى لم يطهرها المسلمون من جزيرة « إيبريا » حين ملكوها ، كما كان رأى « طارق بن زياد » أن يفعل بمن بقى من سكانها الأصليين وأن تكون جبال « البيرينة » كلها فى يد المسلمين حتى يأْمنوا شرّ تلك البؤر الجرثومية ، وهى قليلة ، سكنت الشمال الغربى من إسبانيا عند خليج « غاسكونيا » على نهر « دافا » ؛ كان يسميه المسلمون بالصخرة ، والاسبانيون يسمونها « كوفا دونجا » لجأ إليه فلول من « القُوط » مع من بقى منهم واندمج فى (الباشكنس) ــ الباسْك ــ ؛ وانتخبوا رجُلاً منهم من سلالة (لذريق) ــ رودريك ــ آخر ملوك (القوط) اسمه : (بلايو) ليكون أميراً عليهم .

وكانت هذه الفُلُول تَعْتَصِم بما فى تلْك الجهة من الحصون والمعاقل الطبيعيّة ، ويستميتون فيها دفاعاً عن وجودهم وحياتهم ؛ وإن كانوا يتظاهرون أحياناً بالطاعة والإخلاص للمسلمين ، وقد يرشدونهم إلى عورات الفرنجة فيما وراء جبال (البيرنية) ، بل ويساعدونهم عليهم ، وكانوا يدفعون بذلك عنهم الفرنجة من الشمال ، والمسلمين من الجنوب .

وبقى أمرهم على هذا المنوال حتى كوّنوا لهم دولة سمّوْها « ليون » ، أقاموا فيها ملكاً منهم ؛ ثم أخذت دولتهم هذه فى الاتساع إلى

الجنوب الشرقى حتى عُرفت باسْم : (قشتالة) ، فقام أمير منهم برعايتها ، وكانت (قشتالة) تمتد حدودها شرقاً ببطء حتى ظهرت مملكة ثالثة اسمها : (نافارا) .

ثم ظهرت دولة « أراغون » فى الشمال الشرقى للبلاد .

وأخذت تلك الدول الأربع تدسّ للمسلمين دائماً بواسطة ولاة الأطراف والحدود ويوقعُون بَيْنهم ، فيُعْلِنُ الواحد منهم الحرْب على الآخر ، ويُغيرون على حدود بعضهم البعض ، فتضطرب الأحوال ، وقد يتعدى الاعتداء الطرفيْن ، فيسير الأمير أو الخليفة جيْشاً لتهدئة الحدود والأطراف ، وقد ينتهز مسيحيُّو الشمال هذه الفرص للإغارة وآقتطاع الأرض من الأطراف والحصون فى الحدود والقلاع .

وهكذا لم تتمتع البلاد بالطمأنينة والسلام لوجود تلْك العوامل الهدامة الدسّاسة من منتصف القرن الثانى للهجرة إلى منتصف القرن الخامس إلّا قليلاً .

وكل هذا من كيْد ملوك « قشتالة » و« ليون » و« أراغون » ، إلا إذا وقعت بيْن هؤلاء الوقيعة فيضعف أمرهم حينئذٍ ويضطرون لدفع الجزية للخلفاء أو لأمراء المسلمين ، كما حدث أيام « عبد الرحمن الناصر » ؛ إلى أن آنتهى أمر الأُمويِّين بذهاب ملْكهم ؛ ثم كانَ ملوك الطوائف الضعفاء المساكين ، بينما كان أهل اشمال يزحفون جنوباً ويحتلون البلاد من المسلمين ويملكونها حتى قُضِيَ الأمر وتسلَّموا مفاتيح « غرناطة » ، ولم يَبْق للمسلمين فى ذلك المُلْك الكثير سوى الذكْرى المؤلمة ...

المراسيم الملكية لاضطهاد المسلمين :

أصدر عاهلا إسبانيا « فرديناند » و« إيزابيلا » مجموعة من المراسيم متتابعة زمنيّاً تقضى كلها بآضطهاد المسلمين ؛ وقد نُقلتْ عن المجاميع الرسمية الملكية ، ونَنْقُل هنا مُخْتَصَراً لبعضها :

(أ) فى يوم الثلاثاء ، العشرين (٢٠) من شهر يوليو (تموز) سنة (١٥٠١)م ؛ [الموافق الرابع (٤) من المحرَّم سنة (٩٠٧)هـ ، صَدَر أمرٌ من الملكيْن بمنْع وجود المسلمين فى مملكة « غرناطة » ، وقد اختارهما (أى الملكيْن) الله لتطهيرها من (الكفرة) !!! .

كما أنَّه يحظر عليْهم ــ أى المسلمين ــ أن يَتّصلوا بغَيْرهم خشية أن يتأخَّر تنصيرهم ، ويحظر عليهم أيضاً الاتصال بمن تَنصَّروا لئلا يفسد عليْهم إيمانهم بمخالطتهم ، وكل من خالف تلْك الأوامر فجزاؤه الموْت وتُصادر أملاكه !!!

(ب) فى يوم الثلاثاء الثانى عشر (١٢) من شَهْر فَبْراير (شباط) سنة (١٥٠٢)م ، الموافق الثالث عشر (١٣) من شهر رمضان سنة (٩٠٨)هـ ؛ صَدَر أمرٌ ملكى آخر يحتّم على كل مسلم حرٍّ يبلغ الرابعة عشرة من عمره إن كان ذكراً ، والثانية عشرة من سِنّها ، إن كانتْ أنثى ، أن يغادر مملكة « غرناطة » قبل أول شهر (مايو) ــ آيّار ــ التالى .

على أنه يُسمح لمن يريد الخروج أن يتصرَّف فى مالِهِ وأملاكه على أن لا يكون الخروج إلى شمالى إفريقيه التى كانت فى حرب قائمة مع إسبانيا فى ذلك الحين ، وليكُن الخروج إلى بلادٍ أُخرى .

وكل مخالفة للأمر تجْعل صاحبها عُرْضة للموت والمصادرة ، وتمييز الأرقاء من الأحرار تقيَّد أرجلهم بقيودٍ من حديدٍ متى عُرفُوا .

ولوحظ أن كثيراً من مُتَنَصِّرة العرب ، وهم الذين تظاهروا باعتناق النصرانية كانوا يبيعُون أملاكهم ويفرّون إلى إفريقية ، فصدَر أمر جديد :

(جـ) فى اليوم الثانى عشر من شهر سبتمبر (أيلول) سنة (١٥٠٢)م ، الموافق التاسع عشر (١٩) من شهر ربيع الأول سنة (٩٠٩)هـ ؛ صَدَر أمرٌ ملكى يحظر على الناس التصرّف فى أملاكهم قبل مضىّ عاميْن ، كما يحظر عليهم أن يغادروا مملكة « قشتالة » إلّا إلى مملكتىْ : «الأراغون» و« البرتغال » .

* * *

سياسة الباباوات والقساوسة والملوك

إبادة ومحو

ويجب أن لايعزب عن البال تقرير حقيقة ماكان يبغيه الباباوات والقساوسة وملوك إسبانيا ــ وماجاورها ــ ، وهو أنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة بأن المسلم لايرضى بدينِهِ بديلاً ، فكانت سياستهم ترمى إلى الإبادة ومحْو الأثر ؛ وقد أصدروا من الأوامر ما أصدروا وأقاموا المحاكم الفظيعة ، وصادروا ونهبوا ، وهتكوا الأعراض ، وأذلُّوا ، وخسفوا الأرض بمن عليها من غير معتنقى (الكثْلكة) بشتى الطرق وضروب التفنّن فى التعذيب والنكال ؛

الفرار ولا الردة !!

فمن تنصير غير الكاثوليك ، مراقبة أولئك المتنصّرة مراقبة الأبالسة والشياطين ، واختلاف التُّهم وترتيب المؤامرات السرِّية والعلنية لمحاربة من اعتنق الكثلكة ، أو تظاهر باعتناقها .

فمثلاً : « الكاردينال » ــ « كمنيس» أراد أن ينصِّر كل المسلمين واليهود ؛ ويقال إنّه أرْغم خمسين ألْف مُسْلِمٍ على أن يعتنقوا مذهبه .

ولكن هذا لم يُغنهم فتيلاً ، ولم يَقسرهم ، ولم يمنعْه أن يأتى بضروب العسْف لهم والتَّفنن بتعذيبهم .

والملك « فرديناند » الذى كان يتظاهر بالمحافظة على اليهود !!! قد رأى فى أواخر أيامه أن آلافاً مؤلّفة قد أُجْبروا على اعتناق النّصْرانية ، وأن أُلوفاً آخرين قد آثروا فُقْدان كل شىء من حُطام الدنيا على الرِّدَّة ، فتركوا

أوطانهم وتفرَّقوا فى ثغور افريقية ، ولم يَبْق فى « قشتالة » إلا المتنصِّرة فحسْب .

وجاء بعد « الكاردينال كمْنيس » ــ [الدُّون : ألفونْسو مانْريك] ، وأُصْبَحَ كبير المفتشين ، وكان شديد التحمُّس لمقاومة ماكان يُسمّى بـ (الكُفْر) فى تلْك العصور ، ومعنى ذلك : الاعتقاد بغيْر (الكَثْلكة) ، أو المروق عنها .

وكان يأخذ خصومه بأقلِّ شبهةٍ ، سواء كان من متنصرة المسلمين ، أو ممَّن تنصَّر من اليهود ، أو مِمَّنْ كان على مذهب « مارْتنْ لُوثَر » ــ الأنجليكانى ــ ، أو حتى كان من المفكرين الأحرار ، أو غيرْ ذلك ؛ ولم يكن لأحدٍ من هؤلاء جزاءٌ إلاّ الإعدام ، تعذيباً أُوْ حَرْقاً .

إن كل مسلم تنصّر يُعدُّ كأنّه قد ارتدَّ إلى الاسلام إذا ما مَدَح دين محمد ــ ﷺ ــ ؛ أو قال : إن (يسوع المسيح) ليس بإلٓه ولم يكن إلاّ رسولاً ، أو قال بأن صفات « مَرْيم » العذراء ، أو أن اسمها لاتليق بأُمِّه ... ، وعلى هذا يجب على كل مسيحى أن يُبلِّغ مايعلم من تلْك الأمور ، كما أنه يجب عليه أيْضاً أن يبلّغ عمّا يكون قد سمعه أو رآه من متنصرِّة المسلمين إذا هُم زاولوا بعض العادات والتقاليد الإسلامية المرعية، كأن يأكل اللحْم يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك يُباح لهُ ؛ أو إذا احتفل متنصرٌ ، بيوْم الجمعة ، بأن يرتدى ثياباً أنظف من ثيابه العادية ، أو أن يولّى وجْهه شطر الشرق قائلاً : بِسْم الله ... ، أو إذا أوْثق أرجُل الحيوان قَبْل ذبْحه ، أو رفض أكل لحم مالم يُذْبح ، أو ماذبحتْه امرأة ، أو خَتَنَ أولاده ، أو سمّاهم بأسماء عربيّة ، أو أعرب عن أمنيته من آتباع

تلْك السنّة ، أو إذا قال : بأنه يجب ألاّ يعتقد إنسان إلا بالله وحده ، وأن « محمداً » عبده ورسوله ، أو إذا أقسم بما فى القرآن ، أو إذا صام شهر رمضان وتصدَّق خلاله ، وكان لايأكل ولايشرب إلاّ عِنْد الغروب ، أو إذا تَسَحَّر ليْلاً أو قام للوضوء ، أو إذا صلّى وولّى وَجْهه شطر المشرق ، أو إذا ركع أو سجد وتلا شيئاً من القرآن ، أو إذا تزوَّج وفْقاً لما توجبه الشريعة الاسلامية ، أو إذا أنشد أغانى عربية ، أو أقام حفلات للرقْص أو للموسيقى العربية ، أو إذا اتّبع قواعد « محمد » الخمْس [يعنى أركان الاسلام] ، أو إذا لَمَسَ بيده على رؤوس أولاده أو غَيْرهم تنفيذاً لتلك القواعد ، أو إذا غسَّل المْوتى وكفّنهم فى ثيابٍ جديدة ، أو دفنَهم فى أَرْضٍ بِكْر ، أو وضعهم فى قبور من الحجر مضطجعين على جنوبهم وأسند رؤوسهم إلى حجارةٍ ، أو إذا غطّى قبورهم بالغصون الخضراء ، أو آستغاث بـ « محمد » ـ ﷺ ـ عند الحاجة [وليس ذلك من الإسلام ، لأن الاستغاثة لاتكون إلا بالله سبحانه وتعالى وحْده] أو قال : إنّه نبِىٌّ ورسول أو إذا قال بأن الكعبة هى أوّل بيْتٍ من بيوت الله، أو إذا قال : بأنه لم يتنصَّر ، وهو لا يؤمن بالدين المقدّس [المسيحيّة] ؛ أو قال بإن آباءَهُ وأجداده قد فازوا برضى الله ، وقد ماتوا على الإسلام !!!

متابعة حتى فى خارج الحدود

ونصَّت تلْك الأوامر بأنه يجب على المسيحيين أن يُبلِّغُوا ماعرفوه عن المتنصّرين إذا هم هاجروا إلى إفريقية أو غيرها من البلاد ليرجعوا إلى دينهم القديم وأنَّهم آرتدُّوا عن (كثْلكتهم) .

ولقد رفع (المتنصِّرة) ظُلامتهم إلى « مانْريك » فى « برغش » عام (١٥٢٢)م ، الموافق سنة (٩٣٠)هـ يذكّرونه بما قطع لهم من عهود ، ومنها أن لايُقَدَّم أحدٌ منهم إلى (محاكم التفتيش) إلاالتُهَمٍ خطيرة .

ويُقال : بأن (المجلس الأعلى للتفتيش) وافق ـــ أو أظهر الموافقة ـــ على وجهة نظرهم ، وأمر بالإفراج عن متهمين لم تثبت عليهم أيّة تهمةٍ ثبوتاً تاماً !!!؟

والواقع أن هذا الأمر هو تحصيل حاصلٍ ، لأنه بالضرورة يجب الإفراج عن المتهم إذا لم تثبت ضدّه تهمة .

نُفِّذت تلك الأوامر ، وطُبِّقت تلك القوانين على المسلمين وعلى (المتنصِّرة) بمملكة « قشتالة » ـــ مملكة « إيزابيلا » ـــ ؛ وأُمِّن « مانْريك » مُسْلمي مملكة « الأراغون » إلى حين ، لأن طبقة الأشراف ، وأرباب الضياع والمزارع فيها رأوا فى تنفيذ تلك القوانين خراب تلك الضياع وتعريض أملاكهم ومواردهم للخسْران ، وقد لمحوا للملك بذلك .

فتعهّد الملكان « فرديناند » و« إيزابيلا » بعدم التعرض للمسلمين ، كما تعهَّد الملك « شارل الخامس » بذلك ـــ أيضاً ـــ سنة (١٥١٩)م ، الموافق (٩٢٥)هـ لمجلس النواب .

اضطهاد وإذلال :

ثم قامت حرب أهلية بمقاطعة « بلنسية » بين جماعة الأشراف والعامة من الناس ، فرأى هؤلاء أن يعمدوا إلى آضطهاد المسلمين الذين

كانوا فى كنف النبلاء الأشراف ، وتحت رعايتهم ، نكاية فيهم . وكانوا يعلمون أن المسلمين هم أعوان الأشراف ، وعليهم يعتمد هؤلاء فى أعمالهم وفى مزارعهم ، فآضطهد العامة المسلمين أينما كانوا وطاردوهم وأجبروهم على اعتناق المسيحية ، وقد تنصّر بضعة آلاف منهم خشية العذاب المقيم والاضطهاد السائد .

جعل المساجد كنائس :

وهدأت الفتنة ، ورجع جلُّ المتنصِّرين إلى حظيرة الاسلام ، وهاجر آلاف منهم إلى الجزائر ؛ فاتخذ الملك ذلك ذريعةً لإظهار غضبه وإنزال نقمته على الباقين فى مملكته وأخذ على نفسه أن لايَدَع مسلماً فى بلده ، ورجا (البابا) أن يجعله فى حِلٍّ من نقْضِ عهده الذى كان قد أخذه أن لايتعرَّض للمسلمين .

فَرَسَم (البابا) فى الثانى عشر من شهر مارس (آذار) عام (١٥٢٤)م ، الموافق السادس (٦) من جمادى الأولى سنة (٩٢٠)هـ ؛ بِحَثّ رجال التفتيش (قُضاته ومفتشيه) بأن يعجّلوا بإجْبار المسلمين على اعتناق المسيحية (الكاثوليكية) ؛ ومن أبى من المسلمين فعليْه أن يخرج من إسبانيا ، وأمهلوهُم مُدَّةً ، فمن لم يعتنق المسيحيّة أثناءها كان جزاؤه أن يُصْبح رقيقاً عَبْداً طوال حياته !!!

وأمر (البابا) فى ختام مَرْسومه بِجَعْل كل المساجد هناك كنائس .

وعقد « شارل الخامس » اجتماعاً حضره أعضاء مَجْلِسَىْ « قشتالة » و« الأراغون » والقساوسة والأحبار والمفتشين والقادة .

ونظر الحاضرون فيما يجب عمله بعد صدور أمر (البابا) الأخير ، هل يُطبّق على من اعتنق منهم المسيحية ، وهو مكرَهٌ من قبْل ، أم يُطبَّق عليهم من جديد ؟

وبعد أن تشاوروا فى الأمْر مليّاً أجمعوا على أن مسيحيّة المتنصرين صحيحة لاشكَّ فيها ، وأنه يجب على كل المتنصِّرين أن لايبرحوا إسبانيا لأنهم مسيحيّون ، وأُجْبروا على تعْميد أولادهم ، كما أنهم أُمروا بالذهاب إلى أكبر كنيسةٍ فى « بلنْسبة » لِيَطَّهَّروا مما كانوا عليه من الكُفْر والارتداد !!!

ولما عادوا من الكنيسة علموا بأن من يرجع عن مسيحيته يُحْكَمُ عليْه بالاعدام وتصادر أَمْواله .

ومن ذلك الحين حُوِّلتْ كل المساجد إلى كنائس وحرم عليْها أن يُتْلى فيها اسم الله ، وأن تُقام فيها صلاةٌ إسلامية !!!

ولم يجد المسلمون مناصاً من أن يلجئوا إلى الجبال يختمون فى ذراها ، وكهوفها ومغاوِرِها ، ويتواروا زمناً .

وقد أصدر الملك ــ « فرديناند » ــ أَمْراً بالعفْو عنهم ، وكتب إلى زعماء المسلمين فى « بلنْسبة » يحضُّهُم على اعتناق المسيحية ، وأنهم إن فعلوا ذلك كانت لهم منهُ الحماية والعوْن ، وتكون لهم كافة الحقوق التى للمسيحيّين ، كما أكّد لهم أنه سَيَفى لهم ويحفظ عهده معهْم ، مهما كان الأمر .

إلاّ أن سلسلة الاضطهادات لم تنقطع ، فقد صَدَر أمر إلى متنصِّرة المسلمين فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أكتوبر (تشرين

الأول) سنة (١٥٢٥)م ، الموافق الرابع (٤) من المحرم سنة (٩٣٢)هـ ؛ يحظّر عليهم بَيْع الذهب والفضة والحرير والحلى والأحجار الثمينة والمواشى ، وأشياء أخرى ذُكرت فى المرسوم .

ثم أعقب ذلك أمر صدر فى الثامن عشر من نوفمبر (تشرين الثانى) من نفس العام ، الموافق الثانى (٢) من صفر ، يوجب على المسيحيين أن يبلغوا (الديوان المقدس) كل مايأتيه المتنصّرون من رِدَّةٍ أو مخالفة للمسيحيّة ، وأما مايوجب الشبهة فى سلوكهم ، وأُلزم المسلمون بوضْع شارةٍ زرقاء فى قُبَّعاتهم ، وبتسليم كل أسلحتهم ، وحُظر عليهم حيازة شىء منها بعد؛ ومَنْ ضُبِط معه سلاح فجزاؤه الْجَلْد ؛

كما ألزمهم المرسوم بالسُّجود فى الطرقات إذا مامرَّ أمامهم حَبْرٌ كبير ، وأُلزموا ـــ أيضاً ـــ أن لايجهروا بشعائرهم إذا أقاموها ، وأنْ يغْلِقُوا مساجدهم وجوامعهم .

ولم يلبثوا أسبوعاً واحداً حتى فوجئوا فى الخامس والعشرين (٢٥) من ذات الشهر بصدور أمر يوجب عليهم مغادرة إسبانيا قبل نهاية شهر يناير (كانون الثانى) سنة (١٥٢٦)م.، الموافق ربيع الثانى سنة (٩٣٢)هـ ؛ عَبْر طُرُقٍ فى شمال البلاد عُيِّنتْ لهم فى الأمر .

ونصّ المرسوم على أن كُلَّ من يُبْقى أحداً منهم فى ضياعه فجزاؤه الغرامات الفادحة . فثار المسلمون لهذا ، سيّما من كان منهم فى مقاطعة : « قُوْرية » ، وعمّت الثورة كل مقاطعة « بلنْسية » .

ويقول بعض المؤرخين بأن عددهم كان يربو على ستَّةٍ وعشرين ألف أُسْرة ، لجأ كثير منهم إلى الجبال ، ولبثوا يقاومون جنود السلطة الذين أرْسِلُوا إليهم ، وذهب وفْد ممن رأوا فى السِّلْم أَمْناً ، أَوْ شِبْه أَمْنٍ ،

إلى حاكمةِ « بلَنسَيَه » وكانت تُسمّى : الأميرة « جرْمين دِهْ فوا » فحوَّلت الموضوع إلى بلاط الملك لعرض المطالب .

ومَثَل الوفد لدى الملك ، ورجاهُ أن يُمْهل المسلمين خمس سنين لاعتناق المسيحيّة ، أو فلْيغادروا البلاد من خلال ميناء : « الْكَنْت » ، فرفض الملك هذا الرجاء .

فعرض الوفْد أن ينتصّر المسلمون على شريطة أن لايُحاكمُوا أمام « ديوان التفتيش » قبْل مُضِيّ أربعين سِنة ، فرفض الملك هذا أيْضاً .

فقصد الوفد إلى « مانْريك » رئيس « ديوان التفتيش » الأكبر ، وقدَّموا إليْه مذكِّرة يعرضون فيها اعتناقهم المسيحيَّة على شروطٍ منها :

(أ) أن لايطبّق عليهم قضاء الديوان قبل مضّى أربعين سنة .

(ب) أن يحتفظوا خلال الأربعين سنة بأزيائهم ولغتهم .

(جـ) أن يُسْمحَ لهم بمدافن خاصّة بهم .

(د) أن يُسْمح لهم بالتزوّج من أقاربهم ، وحتى من بنات أعمامهم طيلة هذه المدَّة .

(هـ) أن تعتبر كل العقود القديمة صحيحة .

(و) أن يستمّر رجال الدين منهم على القيام بأعمالهم وأن يُعهد إليهم فى قبْض ريْع ماكان للمساجد التى حُوِّلت إلى كنائس .

(ز) أن يُسمح لهم بحمل السلاح مثل بقيّة المسيحيين .

(ح) أن تخفض الضرائب التى يدفعونها إلى السادة ، وأن تكون مُعادِلَةً لما يدفعه المسيحيّون .

(ط) أن لا يدفعوا ضرائب بلديّة بالمدن الكبيرة إلا إذا آختاروا الاشتراك فى تولّى أعمال المدينة وأن يتمتعوا بكل مايتمتع به المسيحيّون من الحقوق .

ولّما عُرضت تلك المطالب على مجلس الدوْلة ، تلخصتْ إجابته بما يلى :

(أ) أن تُتَّخذ كافة الإجراءات التى اتخذت إزاء المتنصِّرين من المسلمين بمملكةِ « غرناطة » ، مع إخوانهم فى المحنة ، فى « بلنسية » و« الأراغون » .

(ب) أن يُسمح لهم بالاحتفاظ بأزيائهم ولغتهم مدة عشر سنين .

(جـ) أن يُسمح لهم بمدافن خاصّة على شرط أن تكُون قريبةً من الكنائس ، وأن يُسمح لهم بدفن المسيحيين الأصليين فيها .

(د) عدم الاعتراض على عقود الزواج القديمة ، ولكن يجب اتباع الشعائر المسيحية فى كل عقد جديد .

(هـ) يحتفظ رجال الدين المتنصَّرين بقبْض ريْع ما للمساجد التى حُوِّلت إلى كنائس بنسبة مايبذلونه من الجهْد فى تنصير إخوانهم .

(و) أن يُسمح للمتنصِّرين بحمل السلاح أسوةً بالمسيحيين الأصليين .

(ز) أن يُسوّى بينهم وبيْن الأُصليين فى نسبة الضرائب المدفوعة إلى السادة ؛ وأصحاب الضِّياع ، وكذلك فى الضرائب الأخرى .

(ح) أن تستمّر الحالة فى المُدن كما كانت ، بالنسبة إليْهم .

(ط) أن لاتفرض عليهم ضرائب لم تُفْرض من قَبْل .

إرغام على اعتناق المسيحية :

ورأى المسلمون فى ذلك أكثر ما يمكن الحصول عليه ، خصوصاً فى مثْل ماهُم عليه من المحنة والشدّة ، فأذعنوا .. ، وأقبل كثير منهم على اعتناق المسيحيّة ، إلّا أقليَّةً اعتصمتْ بالجبال ، وأصرّت على الثورة ،

فجرَّر الملك جيوشه عليهم ، فما لبثوا أن سلّموا ، وأُرغموا على اعتناق المسيحية إرغاماً ، كما دفعوا مبالغ طائلة فِدْيَةً لِأنفسهم من الرقّ .

ومطاردة !!

ولم يَنْثن « ديوان التفتيش » فى « بلنسية » عن غيِّه ، وكان يطمع فى القضاء على الجالية الكبيرة من متنصِّرة المسلمين هناك ؛ واشتدّ « الديوان » فى مطاردتهم واضطهادهم من حين إلى حين ، فكان المسلمون يلجئون إمّا إلى المقاومة ، وإما إلى بذْل المال فديةً عن أنفسهم .

وسعى لمساعدتهم أحد المتنصِّرين من المسلمين المدعو : « كوسمى بن عامر » ، وكان له نفوذ فى البلاط الملكى لاتصاله بِهِ ، لأنه كان من النُّبلاء ؛ فصدر أمر ملكى فى سنة (١٥٧١)م الموافق (٩٧٨)هـ ، وفيه معنى العفْو عمّن ارتدَّ منهم عن المسيحيّة هم وذريّتهم من مصادرة الأموال إذا هم ارتدّوا ، ولم يستثن من ذلك رجال الدين والفقهاء ، ومن آختتن منهم ، ومن آتّهم وكان رهْن المحاكمة ، فلا مصادرة إذا قبض عليهم .

وفى نظير ذلك تعهَّد المتنصّرون أن يدفعوا لخزانة الديوان خمسمائة وألفيْن من (الدُّوكات) كل سَنَة .

عودة المحاكم إلى شدتها وإجبار على التنصر

على أن هذا الأمر لم يطُل عهده أكثر من رُبْع قرن ، حتى عادت (المحاكم) إلى شِدَّتها ، و(الديوان) إلى اضطهاداته ، ورأى أشراف

« الأراغون » وأصحاب المزارع والضّياع فيها أن الخيْر لهم إذا لم يحدث ببقيّة بلاد « الأراغون » ماحدث فى « بلنْسية » ، وخافوا على مصالحهم ، فمعظم المسلمين فيها كانوا يَفْلحون أراضى الملك وأراضيهم ، وفيهم مهرةُ الصُّنّاع ، وهم مع ذلك لا يأتون جريمةً ، بل وادعون مسالمون يكدُّون ويكدحُون ؛ وقد أفهموا الملك ذلك ، وأفهموه أن لاداعى لإجبارهم على اعتناق المسيحية ، فالاضطرار لا يعنى التعلُّق بأهداب الدين الجديد والإخلاص له ، ولكن جهود الأشراف وكبار المُلّاك كانت غير مُجْدية عند ملك لايُراعى عُهُوداً قطعها على نفسه .

وقد أَصدر فى سنة (١٥٢٦)م أوامره لِـ « ديوان التفتيش » بإجبار مُسْلمى بلاد « الأراغون » كلها على التنصُّر ، وقد نُفِّذت تلْك الأوامر ، ولم يُقاوم المسلمون هُناك ، وقُضِيَ الأمْر ، إذ نُفِّذت بذلك سياسة التنصير فى كل أرجاء إسبانيا .

ورجا أعضاء مجلس النواب من الملك أن يصفح عن المتنصِّرين إذا ماكان ذنبهم طفيفاً أو اتّهموا بتُهَم تافهة لحداثة عهدهم بدينهم الذى أُجْبروا على اعتناقه ؛ فرَسَم الملك فى أواخر سنة (١٥٣٠)م ، لكبير المفتشين يأمره فيه أن يَعْفو عن الأوّابين ويغفر زلات المتنصِّرين إذا ما حَسُنَتْ نيّاتهم .

رجاء :

وكان « دُونْ فرديناْند بنْجاس » و« دُونْ ميشيل داراجون » و« ديجولُوبيز بنشارا » من مُقدَّمى المتنصِّرين عندهم لانتسابهم إلى أمراء « غرناطة » وسلاطينها السابقين ، وكانوا قد أُجْبروا على آعتناق المسيحية

لمّا غُلب المسلمون على أمرهم فى « غرناطة » ، يوم تسليم « أبى عبد الله » ـــ « الزّغل » تقدم ثلاثتهم خلال سنة (١٥٢٦)م إلى الملك لما زار « غرناطة » برجاءٍ ... ، وذكروا فى رجائهم شِدّة آضطهاد القساوسة ورجال التفتيش والمسيحيين الأصليين لمتنصِّرة المسلمين .

لجنة لتقصى الحقائق :

وعهد الأمبراطور إلى أُسقف « قادس » برئاسة لجنة تحقيق تطوف أعمال « غرناطة » ، وترى مظالم المتنصِّرين ، وأتمّت اللجنة أعمالها ، وقدمت تقريرها مؤيدة صدْق ماقاله الثلاثة ، وعَزَتِ الاضطهادات إلى رجوع جُلّ المتنصّرين إلى الاسلام ، وأن القليل منهم هو الذى حافظ على الدين الجديد .

أظهر الملك اهتماماً وعقد مجلساً من المطارنة يَرْأسُهُ كبير مفتشى (الديوان) ، وبحث المجلس المسألة المعروضة عليه ، وقرر نقْل (محكمة التفتيش) من « جيان » إلى « غرناطة » ، وأصدر الملك مرسوماً بالصفْح عن المتنصّرين وعما تقدَّم من ذنبهم ؛ أما من عاد إلى الردّة عن المسيحية فجزاؤه العقاب الشديد من (الديوان) .

وأذعن المتنصّرون إلى الأوامر الملكيّة ومافرضتْه عليْهم لجنة المطارنة ، ولم يَسْلموا من دفْع الأموال الطائلة للملك ليكون لهم الحق فى ارتداء أزيائهم القديمة ، ويعفوا أنفسهم من مصادرة (الديوان) لأموالهم إذا ماأتُّهمُوا بالرِّدَّة .

وكان نصيب المتنصّرين فى « الأراغون » مثل نصيب إخوانهم فى « غرناطة » .

ورَسَمَ الملك أوامر عِدّة وقوانين كثيرة .

منها : مرسوم صَدَر عام (١٥٣٤)م يحظر على (محاكم التفتيش) فى « بلنْسية » مصادرة أموال المحكوم عليهم من المتنصرين المتهمين بالرِّدَّة ، وأن تُدْفع تلك الأموال إلى ورثتهم ، ورسم الملك عام (١٥٤٣)م يمهل فيه المتنصِّرين فى « الميدو واريفالو » مُهْلةً ليعودوا إلى حظيرة الكنيسة .

وٱلْتَمَس من (البابا) سنة (١٥٤٤)م أن يُصدر قراراً بأن يكون لمتنصّرى « غرناطة » الحق أن يتولّوا هم وأبناؤهم الوظائف المدنيَّة ، حتى ولو اتُّهمُوا بالرِّدَّة أكثر من مرّة ، وأن تكون لهم كافّة الحقوق والامتيازات الكنيسيَّة ، وأن لا يُنْظر فى كل القضايا المقامة على المتنصرين أمام (محاكم التفتيش) .

وأُصْدر فى سنة (١٥٤٨)م أمراً لكبير المفتشين « فالديس » أن يُصْدر لائحةً جديدةً يسمح بمقضاها للمتنصرين أن يعودوا إلى حظيرة الكنيسة ، دون أى آحتفالٍ علنىٍّ ، وأن تكون دار المتنصِّر بيْن دارين للمسيحيين الأصليين ، ويحرم عليهم استخدام المتنصّرين الجُدُد ، ويُسمح لأبنائهم الذكور أن يتزوّجوا من بنات المسيحيين الأصليين إذا ماتزوجت مسلمةٌ متنصِّرة من مسيحىّ أصيل وحُكم على وليّها الذى دفع لها المهْر بمصادرة أملاكه بتهمة الكفر والإلحاد فإن كانت هذه التهمة قد ارتكبت قبل دفْع المهْر .. فلهذه المتنصّرة من المسلمين أن تدفع باستثناء مهرها من المصادرة .

ومثل هذا إذا ماحمل متنصرٌ من المسلمين مالاً إلى أُسْرة زوْجه ، فله أن يحتفظ بمالِهِ ، حتى ولوْ حُكِم بمصادرة أموال من أعطى المتنصرٌ المال .

ومات الملك ... « شارل الخامس » ...

وتولّى من بعده ولده « فيليب الثانى » الشديد التعصُّب لِلْكَثْلكة ، ولكنه كان يرى من جماعة المتنصرة نشاطاً وقدرةً على فهم العلوم وإجادة الفنون ؛ وكان (ديوان التفتيش) لاتهد ثائرتُهُ أبداً ضد أولئك المساكين ، كما أن (الديوان) ورجال الدولة كانوا يؤثرون المسحيين الأصليين على أولئك المتنصرين ، لذا كان المتنصرون يتسلّلون إلى أفريقية كلما لاحت لهم بارقة أملٍ فى الهروب من إسبانيا المتعصّبة .

ولم تُفِد محاولة الملك لاستبْقائهم ، لأن رجال (الديوان) كانوا لايْرون رأْيه ، وكان كُلَّما أَصْدر قانوناً قاوموهُ وتجاهلوه وعملُوا ضِدَّهُ .

فقد أصدر الملك قراراً يبيح فيه للمتنصٌرة أن يتوبوا على يد القسيس توبةً سرٌية فتُقبل توبة التائب ، فلا عقاب ولا مصادرة .

وكان القساوسة والأحبار يُخْفُون مايُصدر الملك من أوامر وقوانين فى صالح المتنصٌرين ، فلا ينتفع بها أحد؛ وكانت إرادة (الديوان) هى الغالبة ، وفوق رأى الملك ، والويْل والثبور لجماعة المتنصّرين .

اشتداد الديوان فى متابعة المتنصرين :

واشتد (الديوان) فى تتبُّع المتنصٌرين وآضطهادهم ، فمن نطق بالعربية ، أو آستَحمَّ ، أَوْ حجَبَ النّساء ، أو لبس الأزياء الإسلامية ، فهو كَمَنْ أقام الدليل على رِدٌته وكُفْره ، والويْل له من التعذيب .

وأُخذ صغار الأولاد والبنات من آبائهم المتنصّرين ، وعُهِد بهم إلى المدارس والكنائس ، ليشبُّوا فيها وهم لايعلمون شيئاً عن العربية والإسلام[1] ، وآستُبيح كل شيء مع المتنصّرين حتى آضطروا إلى أن يجتمعوا جماعاتٍ سرِّية ويتواطئوا على الثورة دفاعاً عن النفس والعرض واللّغة والدين .

وأوفدوا بعض زعمائهم خفية إلى أفريقية ، وطاف البعض بجبال البشرات لِبَثّ الدعوة للثورة ، وساءَ حَظهم حين ضبطت بعض كتبهم ورسائلهم التى تبادلوها مع سلاطين وأمراء المسلمين فى أفريقية .

وكان فى تلْك الكتب أن الحكومات الإسلامية بأفريقية قد استفزّتها حالة إسبانيا ، حتى إنّهم رأوا أن يبعثوا بالجُنْد إلى « مارْبلة » و« أَلْمُرْيَة » .. ، فأخذت السلطات الاسبانية حذرها وعزّزت ثغورها ، وشدَّدت الرقابة على شواطئها .

ولكن رجال الثورة لم ييْأسوا ولم تَفْتر عزيمتهم ، فاجتمعوا فى إحدى ضواحى « غرناطة » فى اجتماع سرّى وآختاروا « محمد بن أميّة »[2] زعيماً لهم ، يتولى كِبر الثورة وقيادة الناس ؛ وكان الزعيم من سلالة الأمويين ، وقد أُجْبر على اعتناق المسيحية وأسموهُ « فرديناْند دى فالور » .

ونزح المتآمرون إلى جبال البشرات ، وبدءوا بإعلان ثورتهم هناك ، وانضم إليهم سكان تلك المنطقة ، وقد تغلبُوا على جنود السلطة التى أرسلت لإخماد الثورة .

---

(١) تماماً كما يفعل الروس الآن مع الأفغان حيث يرحلون آلاف الأطفال إلى روسيا ليتشبعوا بالمبادىء الشيوعية .. وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(٢) سبق الحديث عنه وعن ثورته بإيجاز .

وقد آقتحموا الكنائس والأديرة وقتلوا قساوسةً وأحباراً مِمَّن كانوا يكيدون لهم ، واستفحل أمر الثورة !! فآضطرت الحكومة إلى تجريد حملة كبيرة على البشرات لتحيط به من كل ناحية ، وحميت الحرب وكانت مواقع حَربية مشهودة ، سنة (١٥٦٩)م ، ولكن جنود الحكومة أمكنها أخيراً أن تنفذ إلى مراكز الثائرين ، فاعتصم هؤلاء برؤوس الجبال ، ووصلت إليْهم جماعات من الرجال نجدة من أفريقية استطاعوا الوصول رغم كل رقيب على الشواطىء ، وظلت الحرب سجالاً بيْن الجنود والثوار .

فآضطر الملكُ أن يرسل جَيْشاً كبيراً قائده أخوه « الدُّون جوان » ، فسار من « إشبيلية » ... فسارعت « البيازين » وغيرها إلى الخضوع ، ولكن بقيّة إخوانهم الثائرين عزموا على أن يُقاتلوا أو .. يُقْتلُوا ، وكان قتالهم قتال المستيئس المستميت .

وقُتِل « ابن أُميّة » غيلةً أثناء الثورة ، فانتخب الثوار موْلاى : « عبد الله » عِوَضاً عنه ، وظلت الحرب مستمّرة طيلة الشتاء .

ورأى قائد جُنْد الحكومة أن يعمد إلى سياسة المكْر والخداع ، فلجأ إلى المفاوضة وأذاع أمراً بالعفْو العام لمن يلجأ إليه ، وأن يمنح المتنصّرين شروطاً حسنةً للصُّلْح إذا هُم أذعنوا ولم يُقاتلُوا ، فأثّر ذلك فى بعض الثوّار الذين كَلُّوا من القتال ؛ ورفض الآخرون الصُّلْح .. ، وهرب كثير بأُسَرِهم إلى أفريقية خشية الانتقام إذا ماكان الفشل .

وَمازالت جنود الحكومة تطارد موْلاى « عَبْدَ الله » حتى تمزّق جنده وأعوانه ، وقتله أنصاره فى نهاية الأمر فداء سلامتهم ، وحُملتْ جثتُه إلى « غرناطة » وعُرِضت على الناس بعد أن مُثِّل بها .

أما ما بقى من المتنصرَين فقد أُجْبروا على إخلاء دورهم ، وشرّدوا فى مقاطعات : « استورس » و« جليكيا » وروقبوا مراقبةً شديدة .

ودبَّر بعض المتنصّرين ثورات فى « بلنْسية » وغيرها ، ولكن الحكومة قبضت عليهم وأذاقتهم سوء العذاب ، وسالت دماؤهم أنهاراً ، وحرقت أجسادهم أكْواماً .

التدجين والاسترقاق

وخَلَفَ الملك « فيليب الثانى » ابنه « فيليب الثالث » ؛ وكان ضعيف الرأى ، خاضعاً لإرادة القساوسة ، وكان وزيره : « دُوق دى لِيرْما » من أشدّ الناس تعصُّباً لِلكثلكة ، ومن ألدِّ أعداء المسلمين والمتنصِّرين ؛ فأشار على الملك الضعيف [سنة (١٥٩٩)م] الموافق سنة (١٠٠٧ ــ ١٠٠٨)هـ ؛ بأنه يجب استرقاق شباب المتنصّرين والكُهُول مِنهم ، وأن تصادر أموالهم ، لأنهم ... مسلمون !! وأنْ يُنْفى شيوخُهُم إلى مراكش والجزائر ، وأن يُؤخذ أطفالهم فيربُّوا فى المعاهد الدينيّة المسيحيّة فى إسبانيا ، وقد أقرّ مجلس الدولة ذلك المشروع ، وأخذوا يدبّرون فى الخفاء كل مايلزم من جهد وقوى لحصْر عدد المتنصّرين فى جميع أنحاء إسبانيا .

وقدم المطران « رابيرا » مذكرةً إلى الملك عام (١٦٠١)م ــ (١٠٠٩ ــ١٠١٠)هـ يتحدث فيها عن إخفاق كل محاولة مع المتنصِّرين ، وأن فى وجودهم الخطر كل الخطر على البلاد ؛ وأن المبالغ الطائلة التى تُصْرف لمراقبتهم بدون فائدة .

وقال : إن الدين هو دعامة الدولة الإسبانية ، وعلى هذا فهو يقترح : تأليف (محكمة سرِّيَّة) من كبار الرهبان والقساوسة تحكم بِرِدَّة المتنصِّرين وخيانتهم ، وبناءً على ذلك تحكم بنفْيهم ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم .

إلا أن هذه المذكرة ــ الاقتراح ــ لم يُعمل بها ، لأن مجلس الدولة رأى السَّيْر فى تحقيق مآربه سِرّاً ، وأن لا تصطبغ إجراءاتُه فى ذلك بصبغةٍ دينيّة ، فَعهد ببحْث المسألة إلى لجنةٍ خاصة يرأسُها « الدوق دى ليرْما » .

مشروع بالنفى والتهجير

وبعد بحث وجدال طويل بين أعضائها اتخذ المشروع لتنفيذه خطة نهائية ؛ وذلك بإمهال المتنصّرين شهراً واحداً لبيْع ممتلكاتهم ومغادرة إسبانيا إلى حيث شاءوا ولهم أن يخرجوا إلى أفريقية وهم آمنون ، أو أن يذهبوا إلى بلاد مسيحيّة إذا شاءوا فيوصى بهم خيْراً (!!!؟) .

وجُعل عقاب من يتأخر عن الرحيل بعد انتهاء الشهر أن يجازى بالموت وأن تصادر أمواله .

ولم يجد المشروع هذا أدنى معارضة ، بل كان الاتفاق عليه بالاجماع .

لكنه لم ينفّذ فى حِينه ، بل تأجّل زمناً بسبب انشغال إسبانيا فى خصومتها مع إنجلترا وفرنسا .

وعاد (مجلس الدولة) من جديد إلى المسألة ، فى شهر يناير (كانون الثانى) من عام (١٦٠٩)م ، الموافق لشهر (رمضان) عام (١٠١٧)هـ .

وكتب تقريراً يحبّذ فيه نَفْى المتنصرين لأسباب منها :

أن إسبانيا معرّضة لخطر غزوها من مراكش .

وقد أقيمت الأدلّة والبراهين على خيانة المتنصّرين فى هذا الصّدد ، ولهذا فهُم أهل للموْت الزؤام أو الاسترقاق ؛ ولكن إسبانيا رحيمة بهم ، رقيقة لهم وتكتفي بنفيهم من أرضها (!!!؟) .

وتقرر تنفيذ الخطة فى خريف العام المذكور ، وأُرسلت أوامر إلى الحكام فى « صِقِلّية » و« نابولى » و« ميلانو » ليُعِدّوا مايلزم من سفُن النّقل لأولئك المتنصّرين ؛ وقد جُمعت سفن كثيرة تُعَدُّ بالعشرات فى جزيرة « فيُورْقة » منذ أوائل الصيف .

ولمّا حلّ الثانى والعشرون من شهر سبتمبر (أيلول) سنة (١٦٠٩)م الموافق لجمادى الثانية سنة (١٠١٨)هـ ، أُعلن قرار النَّفْى ، فاضطرب المتنصّرون وفزعوا .

وقد جاء فى هذا القرار :

إن المتنصّرة هم أعداء الملّة والدين والوطن ، وأن لهم اتصالاً بأعداء اسبانيا ، وأن لا سبيل إلى جعلهم يعتنقون الدين المسيحى (الكاثوليكى) ولهذا وجب طرْدُهُم إلى بلاد البربر فى أفريقية ، وأنه يجب أن يغادر المتنصّرون إسبانيا رجالاً ونساءً وأطفالاً فى ظرف ثلاثة أيام (!!!؟) من تاريخ يوم نشر القرار فى المدن والقرى ، وأن يذهبوا إلى

الثغور التى يعيّنها لهم المكلّفون بترحيلهم من قِبَل الحكومة ، وجزاء من يتخلّف الموْت .

وقد صُرّح لهم أن يأخذ كل منهم مايستطيع حمله من المتاع فوق ظهره فقط وأن يحمل كل مايستطيع من المؤونة ، ولو أن الحكومة تكفّلت بمَدِّهم بالغذاء أثناء السفر ، ويجب عليهم أن يلبثوا خلال الأيام الثلاثة فى أماكنهم رهن إشارة الموظفين المكلفين من الحكومة بأمْر ترحيلهم ؛ وأن يكون كل ماخلّفوه من عقارٍ أو منقول للسادة ، ومن أشعل النار فى عقار أو منقول فجزاؤه ، هُو وجيرانه فى الحىّ جميعاً ، الإعدام .

وفى الأمر :

أن يختار السادة ستة أشخاص من كل مائة من جماعة المتنصّرين ، شديدى التعلُّق بالمسيحيّة ، كثيرى الخبرة بأعمال الزراعة والفنون ، وأكبرهم سِنّاً للانتفاع بهم فى تلْك الأمور ؛ ومَنْ كان دون الرابعة من سِنِّه سُمِح له بالبقاء إذا رضى بذلك (!!!؟) أو إذا رضى آباؤهم أو أولياؤهم بذلك ، وإذا كانوا دون السادسة وكانوا من أبناء المسلمين الذين لم يتنصّروا فلهم أن يبقُوا وأن تبقى معهم أمهم المتنصّرة ؛ وإذا كانت الأم نصرانية أصيلة والأب مُتنصِّراً ، فإنّ الأب يُنْفى وتبقى الأم مع أطفالها الذين هم دون السادسة ، وكل متنصّر أقام بيْن مسيحيين مدة عاميْن ولم يختلط بالمتنصّرين ، وشهِدَ لهُ قِسّيس بأنه على نصرانيّته ، فله أن يبقى .

وكل من أخفى هارباً ، أو حمى متنصّراً ، فجزاؤه الأشغال الشاقة مُدَّة ست سنين .

وقد أُمر الجنود ، والمسيحيّون الأصليّون ، بعدم التعرّض للمتنصِّرين ، وأن لايهينُوهم لا بالقول ولا بالفعْل ، وجزاء مَنْ يَفْعل ذلك شديد العقاب !!!

كان ذلك القرار مفاجأة شديدة الوقْع على نفوس المتنصّرين ، وكانت الثورات السالفة قد أنْهكت من قواهم ، وأدركوا أن الحكومة جادة فيما اتخذت من قرارات ، وأنها قد هيّأت نفسها وبكل الوسائل لتنفيذ قرارها ؛ وأعدّت مالديها من بأس وقوّة فى كافة الأرجاء ...

ومع ذلك ..، فقد حاول البعض أن يثوروا وأن يُقاوموا وأن يُدافعوا عن أنْفسهم ما استطاعوا ، لاسيّما فى بعض المناطق الجبلية ، إلا أن مقاومتهم لم تُجْدِهم شيئاً ، وتغلّبت الحكومة بقواتها وجبروتها عليهم بسرعة ، وأخمدت انتفاضاتهم اليائسة .

النّفْى والتّهْجير والتشتيت

بُدىء بتنفيذ القرار فى مقاطعات « الأراغون » و« بلنْسية » لأن القرار نُشر فيهما أوّلاً .

ففى أوائل شهر اكتوبر (تشرين الأول) (١٦٠٩)م الموافق : شهر رجب سنة (١٠١٨)هجرية ، نفىَ نيّف وثمانية وعشرون ألفاً من المتنصرين من ثغر « دانية » وثغور أخرى .

وقد ذهبت بهم السفن إلى « وهْران » فى الجزائر ، ونزلُوا فى جوار وحماية سلطان « تْلِمْسان » .

ونُفىَ من ثغر « بلنْسية » مايقرب من خمسة عشر ألْفاً ، ونُفى البعض من « الكَنْت » بينما كانت فِرَق الموسيقى تعزف ألحانها !!!

والأناشيد تُرتَّل !!!

ويقدّر بعض المؤرخين عدد المنفيين حتى أواخر سنة (١٦٠٩)م بما يقرب من مائة وخمسين ألف نسمة .

وقد كان بيْن المتنصرين أُلوف من ذوى الثراء ، أمكنهم أن يُسافروا على نفقتهم الخاصة .

ورحل مايقرب من الخمسة والعشرين ألف نسمة كانوا فى « الأراغون » إلى « نافارا » ، ورحل من « قشتالة » نحواً من سبعة عشر ألْفاً قصدوا فرنسا ، فأذن لهم ملكها « هنرى الرابع » بذلك ، على شرط أن يحافظوا على المذهب الكاثوليكى ، وأن يسكُنُوا ماوراء « الغارون » .

أما فى الجنوب الشرقى من إسبانيا ووادى الأندلس فقد أُعْلن المتنصرون هناك بقرار النفى فى « غرناطة » فى الثانى عشر (١٢) من شهر يناير عام (١٦١٠)م الموافق السابع عشر (١٧) من شهر شوال سنة (١٠١٨)هـ .

والقرار يشابه ما أشرنا إليه آنفاً من الشروط ، إلاّ أنه سمح للمتنصّرين بالرحيل خلال شَهْر ، كما أذن لهم أن يبيعوا المنقول مما يملكون ، وأن يقبضوا أثمانه ، وطبْعاً يَسْهل فَهْم مالهذا القوْل من قيمةٍ وماتُباع به الأشياء من أثمان هى نهاية مايمكن أن يحصل عليه مضطر للبيْع العاجل من رخص الأثمان .

ونص قرار « غرناطة » ــ أيضاً ــ على أن الملك قد صادر عقار المتنصرين وأخذه لِنَفْسه .

ويقدّر المؤرخون عدد المنفيين من إقليم « غرناطة » بما يقرب من مائة الف نسمة . واتّسع شمول القرار حتى بَلَغ كل ناحيةٍ ودسْكرةٍ فى إسبانيا .

ولايمكن تصوُّر مدى القسْوة والوحشية والشدَّة فى معاملة أولئك البائسين ، ولقد ظلّت سُفُن النَّقْل المعدّة لتهجيرهم ، تروح وتغدو شهوراً طوالاً ، وهى مشحونة بهم تُلْقيهم فى ثغور أفريقية على صورةٍ من الذُّلّ والهوان ، تفتّت الأكباد أسى وحسْرة ، وتذيب أقسى القلوب أسىً ولوْعة .

عدد المنفيين

أما تقدير عدد المنْفيِّين من إسبانيا كلها بعد ذلك القرار فإن الخلاف فيه كبير ومتفاوت ، بيْن المؤرخين .

فأما « فليورنْتى » فإنه يقدّرهم بـ مليون نسمة ، وغيره يُقدّرُهم بستمائة ألف ، وثالث بتسعمائة ألف .

لكن « فون بورجشتال » ـــ النمساوى ـــ يقدرهم بثلاثمائةوعشرة آلاف .

وتُقدِّر إحصائية تقريبيّة لسكان إسبانيا فى تلك العصور بثمانية ملايين نسمة ؛ وإذا حملنا ما يقوله « نافاريتى » ـــ وهو من كبار مؤرخى إسبانيا ـــ على حقيقته بأن عدد من نُفى من إسبانيا أثناء تلك العصور هو ألْفانِ من الألوف اليهودِ وثلاثة ملايين من المسلمين ـــ أو من متنصِّريهم ، عدا من آسترِقّ منهم أو قضى نحبه تعذيبا وحرْقاً ـــ

وعددهم كبير جدّاً يصْعُبُ إحصاؤه ، ولكن العدد التقريبى لايقل بأىّ حال من الأحوال عن مائتى ألف إلى ثلاثمائة ألْف نسمة .

وإذا ماراجعْنا كل تلْك الأعداد الضخمة لتقريب الحقيقة إلى الأذهان بقدر المستطاع أمكننا أن نعرف مدى الفاجعة التاريخية التى حلَّت بالمسلمين فى تلْك البلاد ، وهى من أسْوأ ماسجّلت أسفار التاريخ من ظُلْم وفظاعة وقسْوةٍ وبربريّة .

وذلك على حدّ قول الكاردينال « ريشيليو » .. !!
والتى لم تُرْض ــ أيضاً ــ « كليورنْتى » أحد رجال الدين المسيحيين ، والذى كان من أَعْرف الناس بخبايا وخفايا (ديوان التفتيش) وأعماله ، تلك الأعمال التى لايغمض العين عن إتيانها وارتكابها من يملك ذرّة من العقل والشعور !!!

مابعد النَّفْى

لم تكف (محاكم التفتيش) عن إتيان مخازيها ، وسجل التاريخ عدة حوادث ومحاكماتٍ على أفرادٍ وجماعات اتُّهموا بالارتداد عن الكثلكة بعد نَفْيِ تلك الجموع الغفيرة .

فقد قُبض فى « بلنْسية » على « فَرَنْشيسْكو دى لوكى » المتنصّر ، سنة (١٦٢٥) م ، وكان قد فرَّ من إسبانيا وانْضَم إلى قَراصنة الجزائر الذين كانوا يغيرون على شواطىء أوروبا ، ويُقال بأن هذا الرجل قد أدّى فريضة الحج ، ووصف رحلتَهُ فى كتاب ألَّفه ، وقد حكمت عليه (محكمة التفتيش) بالجلْد ، والسجن مدى الحياة .

وبعد عشرين سنة قُبض على جماعة من متنصّرة العبيد لأنهم

حاولوا الفرار من الجزائر وقَضَتْ عليهم (محكمة التفتيش) فى « بلنْسية » أن يذوقوا صنوف عذابها .

وصَدَرتْ أحكام فى « قُرْطبة » على مسْلمةٍ استُرِقّتْ وأُجْبِرتْ على التنصُّر لمحاولتها الفرار إلى الجزائر واتهامها بالارتداد عن المسيحية .

وصَدَرت أحكام فى « برشْلونة » كذلك ؛ وفى « مَدْريد » سنة (١٦٨٠) م قُدِّم للمحكمة مُسْلم من « قادسٍ » اسمُه « مصطفى » ، أُجْبر على أن يبْدل اسمه باسم مسيحى ، وأصْبَح يُدْعى : « لازارو فرنَنْلو » ... ، ولم يُنْكر الرجُل إسلامه بل أصرَّ عليه ، فأُعْلِم حَرْقاً هو وجماعة أُخْرى اتُّهِموا بتُهمٍ عديدة .

ولم يغفل (الديوان المقدَّس) ، ولم يتوانَ لحظةً عن أداء المهمة الوحشيَّة البربريّة التى تطوَّع أفراده للقيام بها ؛

فقد صدرت أحكام عن محاكمة فى بلاد : « الوليد » و« طليْطلة » و« مدريد » وفى « قرطاجنّة » حيث ضُبطت جماعة من المتنصرّة يُصلُّون سِرّاً بمسجدٍ هناك سنة (١٧٧٩) م الموافق (١١٧٣) هـ ، ولا تَسَلْ عمّا لاقوه من جزاءٍ .. وعقاب .. وحرْق !!!

على أن (الديوان) كان نشيطاً مُجدّاً فى اضطهاد غير اليهود وغير المسلمين .. ، فى محاكمة المسيحيين أنفسهم باتّهامهم بأنهم حادوا عن الكثلكة ؛ مع أن رجال (الديوان) كانوا يهدفون إلى أشياء أخرى دنيويّة محضة ، لادخل للدين فيها ، وإلى مآرب منحطة فى أغلب الأحيان .

وقد حاول (البابا) ــ « بول الرابع » ــ الرئيس الأعلى وصاحب الكلمة العليا التى لاتردّ فى شؤون (الديوان المقدّس) وفى (محاكم التفتيش) أَنْ يُطوِّع (الديوان) لتجريد « شارل الخامس » وآبنه من المُلْك .

وممن آضطهدهم (الديوان) ورجالُه مُطْران « طليْطلة » [بارتْلمى كارانيزا] سنة (١٥٥٧)م ؛ فقد دُبّرت ضده المكائد ونُصبَتْ له الشّراك ، بسبب حقْد بعض كبار الأحبار لهُ .

وقد آعتقل فى بلد « الوليد » بمنزل خاص بعد أن قبض عليه فى الثانى والعشرين من شهر أُغسطس (آب) سنة (١٥٥٩)م (٢٤ ذى القعدة سنة ٩٦٦هـ) لاتهامه بالكفر ؛ وقد لبث فى مُعْتقله إلى الخامس من شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة (١٥٦٦)م ، وحُمل إلى « روما » وهو ضعيف ليحاكَم هناك .

وقد أَصْدر (البابا) أمره إلى المطران المعذّب أن يتوب عن كل آرائه فى الكُفْر والإلحاد !!؟ وأن لا يوافق فى آرائه آراء « مارتن لوثر » رأس الكنيسة الانجليكانية ؛ ثم قضى عليه بالاعتقال خمس سنواتٍ أخرى فى ديْر عيَّنه له ، ويؤدى صلواتٍ عينها له ــ أيضا ــ .

وقد قضى المطارن الْهَرِم نَحْبه فى سجنه ، فى الثانى من شهر مايو (آيار) سنة (١٥٧٦)م ، بعد أن قاسى ماقاسى من أَلْوان العذاب .

وقد حُكم على « دون ردريجو دى بومون » من أمراء « نافارو » ومن عظماء إسبانيا سنة (١٥٤٢)م لعطفه على المتنصّرين .

وكذلك حُوكِمَ أمير الْبَحْر لمملكة « أراغون » [سانْكودى كرودفا][1] مُتَّهماً بالكُفْر والزنْدقة ، وقد اعتُقل وتوفىّ فى أحد الأُدْيرة وهو شيْخ طاعن فى السنّ .

واستمر الديوان فى جبروته وطغيانه وفسْقِهِ وفجوره حتى احتلّ الفرنسيون إسبانيا وصدر أمْر « نابليون » سنة (١٨٠٨)م سنة (١٢٢٣)هـ ؛ بإلغائه .

ولكنه عاد للحياة فى عَهْد « فرديناند السابع » ملك إسبانيا الذى أحياه سنة (١٨١٤)م ... ، وظلّ يعبث فى مظالمه حتى سنة (١٨٣٤)م حيث وافق مجلس النواب على إلغائه نهائياً فى إسبانيا كلها .

ولقد كان الرئيس « تركويْماذا » يفخر بأنه قضى بأحكامه الجائرة وتفنُّنه فى صنوف التعذيب على نيّف ومائة ألف نسمة ، طيلة سبعة عشر عاماً قضاها فى رئاسة (الديوان) الدموىّ !!!

وحكم الرئيس « ديزا » خلال سبعة أعوامٍ من ولايته على مايقرب من خمسةٍ وثلاثين ألف نسمة .

أما « كمْنيس » فإنّه اشتد على المسلمين والمتنصّرين إذ قضى قضاؤه على إهلاك نيِّفٍ وخمسين ألف نسمة ، طوال اثنتىْ عشرة سنة .

عدد الضحايا

ويُقدِّر « ليورنْتى » ـــ وهو خبير بأعمال محاكمات (الديوان) عدد الضحايا من أوّل عَهْد (الديوان) حتى أوائل القرن التاسع عشر

(١) كردوفا : (قرطبة) .

بما يأتى :

٣١,٩١٢ شَخْصاً أُحْرِقوا فِعْلاً

١٧,٦٥٩ أُحْرِقت رموزهم وتماثيلهم

٢٧١,٤٥٠ أُوقعت عليهم عقوبات متنوّعة ، وكلها شديدة

٣٢١,٠٢١ مجموع الضحايا

وسواء كان هذا الرقم صحيحاً أو كان مُبالغاً فيه على رأى البعض ، أو أقل من الحقيقة بكثير على رأى آخرين ، فمما لاشك فيه أن أمثال تلك الفظائع التى كان يأتيها (الديوان المقدّس) ، والأحكام القاسية الجائرة التى كانت تقضى بها (محاكم التفتيش) وتنفذها هى .. ، فظائعُ ليس لها مثيل فى تاريخ كبار المجرمين من جزارى التاريخ « تيمورلْنك » أو « نيرون » !!!

* * *

كيْف بدأ (ديوانُ التفتيش) ؟

اجتمع رجال الكنيسة (الكاثوليكية) فى مدينة « كولوز » ـ الفرنسية ـ سنة (١٣٢٩)م (٧٢٩)هـ ؛ لأول مرة أيام البابا « غريغوريوس » ـ التاسع ـ اجتماعاً تمهيدياً لتقرير إنشاء محكمة يقدَّم إليها كل من اتُّهم فى عقيدته (الكاثوليكية) ، وكل من كان على دينٍ أو معتقدٍ غير ما يعتقد جماعة (الكاثوليك) ـ أمثال اليهود و(البروتستانت) ـ الإنجليِّين ، وجماعة المفكرين الأحرار ، والمسلمين الذين كانوا فى أوروبا (فى إسبانيا والبرتغال) ـ ، وكل من يُتّهم بالإلحاد والزندقة فى مسيحّيته (الكاثوليكيّة) .

ولكن البابا المذكور لم يقرر إنشاء (الديوان) بطريقةٍ رسميّة والعمل بما رآه المجتمعون ، إلا فى سنة (١٣٣٣)م ـ (٧٣٤)هـ ؛ فصدرت الأوامر إلى كل الكنائس الكاثوليكية بتعيين كاهن خاص ، للبحْث عَمَّن أشَرْنا إليهم سابقاً ، وتقديمهم لمحكمةٍ بابَويّةٍ خاصة .

وخُوِّل لكاهن التفتيش الخاص أن يستعين بمن يراه لازماً لمعونته من الجواسيس ؛ وكان يُطْلَق على تلْك المحكمة البابويّة الخاصة اسم (الديوان المقدّس) أو (التفتيش المقدّس) .

ولم يكن يُعْرف أولئك الجواسيس ، بل أُخفيتْ اسماؤهم عن الناس ووُعدوا بغُفْران خطاياهم ، وأُحلَّ لهم آرتكاب الجرائم مهما يكُن نوعها ، ومهما يعقبها من عظائم الأمور .

فكان المتّهم الذى يحضر أمام المحكمة يُسْأل ويُقَرَّر بما يعتقده

صراحة عن الكنيسة وعن الدين المسيحى ، فإذا أبى الإذعان دُفع به إلى مُعِّذبين يسومونه سُوء العذاب .

وظل (ديوان التفتيش) يعمل فى فرنسا ، تارة جَهْرةً وتارة خِفْيه ، تَبَعاً لآراء الملوك الذين عضدوه ، حتى كانت الثورة الفرنسية (١٧٨٩)م ، فتقرّر إلغاؤه ، وانتقم الشعب من رجاله ، وهرب بعضهم إلى إسبانيا والبرتغال لينضمّوا إلى رُصفائهم هناك .

ومع أن ذلك (الديوان) وتلك المحاكم كانت معروفة فى فرنسا وإيطاليا وفى بلادٍ أخرى من أوروبا ، إلا أنها لم تعمل بها مثل ماعملت فى إسبانيا والبرتغال ، ولم تمارس من الفظائع والأعمال البربريّة الوحشية مثل مامارست فى شبه جزيرة (إيبَريْا) ــ إسبانيا ــ حتى قدّر بعضهم عدد ضحايا التفتيش بما لايقل عن تسعة ملايين من الناس فى المدة الزمنيّة بيْن (١٣٣٣)م إلى (١٨٣٥)م ــ خمسة قرون ــ حيث أُلْغى فى إسبانيا بعد أن لَطَّخ بعارِهِ كُلّ أرجائها ، وباللَّمِ الإنسانى البرىء المسفوك ، لماذا؟؟ فى سبيل نُصْرة (الكثلكة) !!!

* * *

سُجُون التفتيش
فى
إسْبانيا

يذكر بعض عارفى إسبانيا والدارسين لأحوالها والمطلعين على بواطن الأمور فيها ، أنّه يوجد إلى يومنا هذا فى عِدَّة مُدُن منها أَبْنية قديمة ، غريبة فى هندستها وشكلها ، تُباين ماحوْلها كل المباينة ، كأنها مجموعة من قصور وأَدْيرة وسجون معاً ، فجُدْرانها ضخمة ونوافذها قد اعترضها حديد ضَخْم غليظ قد تَصَدّأ .

وإذا وَلِجْتَ إحدى هذه الأبنية من الخلْف رأَيْتها مؤلفة من عِدَّةِ غُرَفٍ صغيرة ، يوصل إليها بمَمَرٍّ ضيِّق ؛ ويَصِل النُّور إليها من كُوَّةٍ صغيرةٍ فى سقْف كل غرفة ، وقد أُحكم سدّ الكُوَّة بثلاثة أدوارٍ من غليظ الحديد عليْها .

ويرى الزائر فى أَرْضِ الممرّ فتحاتٍ صغيرة كل فَتْحةٍ تَبْعُد عن الأُخرى نحو مِتْرٍ ونصف المتْر ، وقد أُحْكم سدُّها بالحديد الغليظ ، وقد خصصت هذه الفتحات للمسجونين فى الغرف السُّفلى تحت الممرّ ، أى الغرف التى بالدَّوْر الأسفل ، ومن تحته طبقات أُخرى عديدة تحت الأرض وهى سجونٌ سِرِّيّة لايهتدى إليْها إلاّ رجال المحكمة ، والسجانون فحسْب .

ومهما يكن النهار رائعاً والشمس طالعة مُشْرقة ، فإن الزائر لايُبْصر شيئاً فى تلك الممرات والغرف ، لِشِدَّة ظُلْمة المكان ، بل يجب أن

يصطحب نوراً كاشفاً يُضيء له الطريق .

أما الغرف فقد كانت تُطْلى بالشّحم ، ويبدو أن ذلك كان بهدف مَنْع السجين من تسلُّق الجدران للهرب ، أو عمل أى أثرٍ فى الحائط للنجاة ..

ثم يرى بعض آلات التعذيب فى كلّ مكان ، كالأسواط التى بها بعض قِطَع الحديد الشائك ، لجلْد المسجونين وإهراء لحومهم عن عظامهم ... ، وقُدُور من الحديد لعلّها كانت لِصهْر الرصاص فيها وصبّه على المعذَّبين ، أو لِغَلْى الماء أو الزيْت لمثل ذلك الغرض ، ويوجد إلى جانب ذلك مُستوْدع لِلفَحْم لايزال كثير منه إلى الآن بقُرْبها .

ومع أن تلك السجون كانت مملوءَة بالرطوبة الدائمة ، فقد كان الماء يُصَبُّ فيها باستمرار كى لاتتشرب الأرض الدماء السائلة من أبدان المعذبين وتبْقى مشبعة بها .

ذلك مثال على أَبْنيةِ التعذيب التى كانت تُدْعى : (دُور الديوان المقدّس) ويستولى الرُّعْب والخوف على كل من يمرّ أمامها لِمجَرَّد تصوُّره أنه سَيَدْخلها يوْماً ما ، فكان يتلفّت يميناً وشمالاً وإلى خَلْف ، وهو لايُصَدِّق أنه سيجوزُها ويتخلّص من منظرها المخيف المرعب .

* * *

سجون التفتيش
فى
البرتغال

كانت محكمة (ديوان التفتيش) العامة فى (البرتغال) بمدينة « لشْبونة » ، فى مكان الملْعب الوطنىّ اليوم ، وقد شغلت أبنيتُها كل الحىِّ ، حتى إن أبوابها الخلفيّة كانت تصل إلى الطريق المؤدى لديْر القدّيس « أَنْطونيو » .

وقد بُنيتْ هذه الدار بطريقةٍ تؤدى الغرض من إنشائها ، فكانت ذات غرفٍ عديدة وممراتٍ مظلمة تحت الأرض ، وفى وسطها أربع قاعاتٍ كبيرةٍ فسيحة ، كل منها أربعون متراً مربَّعاً ، ويحيط بكل قاعةٍ ثلاثة أَرْوقة مؤلفة من ثلاثة أدوار ، وفى جدران تلك الأروقة أبواب صغيرة ، الواحد جوار الآخر ، كانت أبواباً للسجون المعدَّة للمتهمين والمعذَّبين .

وفى الممرِّ الأسفل الذى يحُيط بكُلّ قاعةٍ سجون صغيرة وضيِّقة ، حالكة الظلام ، وقد أُعِدَّتْ لِمَنْ هُم أشد كُفْراً وضلالاً من غَيْرهم !!!

وكانت الأروقة الثلاثة ومابها من سجون تحيط بكل قاعةٍ من قاعات التعذيب، وهى عبارة عن ثلاث دَرَجات للتعذيب، تَبَعاً لذنْب المتّهم فى نَظَر رجال الديوان وتقديرهم ، ومايُحكم به عليه من أنواع العقاب .

فمن كانت ذنوبهم خفيفة سُجنُوا بالسجون العُلْيا ، وهؤلاء يصلهم فيها قليل من النور ، وكان جُلُّهم مِمَّنْ قُبض عليهم للبحث عَن شؤونهم والتثبُّت من أمورهم ، لأن الديوان ماكان ليَثِق كثيراً بأى تهمةٍ تصِلهُ مالم تكن عن طريق أفرادِهِ وعيونه الذين عيَّنهم ، أمّا من وشى بهم غير الجواسيس فكانوا يُزَجُّون فى تلْك السجون العليا .

وكان (الديوان) يسعى للقبض على أعدائه الذين يرغب فى التّخلُّص منهم دَفعة واحدة ليقتُلهم ، وأمثال أولئك المسجونين سجْناً احتياطياً كانوا قلائل نادرين جدّاً .. ، وقلَّ من قبضت عليه محكمة (ديوان التفتيش) وأدخلته سجونها وخرج حيّاً منها !!! لأن أولئك المفتشين كانوا يقضون على كل مخالِف لدينهم وكنيستهم بالموْت ، أما من كان معهم فله أن يفصل مايشاء دون أىّ مسؤولية ، ولاعقاب عليه .

وخصصت الطبقة الوسطى من تلْك السجون للنساء اللواتى كان رجال « الديوان » يتردّدون عليهن من حينٍ لآخر !!! وكثيراً ماكان يتمّ ذلك للعبث بعفافهنّ فى تلك الدار الموحشة .

وكان لأبواب تلك السجون الفرديّة عوارض غليظة من حديد ، يظل بها السجين بعيداً عن الباب بطريقةٍ أُعِدَّت لذلك .. ، لئلا يحاول الكسر ... ، ومع فرض كل المستحيلات ، وتمكّن سجين من أن يفْتَح الباب ، فإنّه يرى أمامه سوراً عالياً طوله خمسة وعشرون مِتْراً يفصله عن السجن خندق عميق عرضه يتراواح بْين الأربعة أمتارٍ والخمْسة، ويطوف به الحراس ليْل نهار .

ولا يرى السجين شيئاً مما فى الخارج ، ولايدرى مافيه ، ويَدْخل إليْه بصيصٌ من نورٍ ضئيل ، وقليل من الهواء ــ لئلا يختنق ــ من فَتْحةٍ

صَغيرةٍ فى أعلى الباب ؛ وكل غرفة ـــ لاتزيد على مترين طولاً ومثلها عَرْضاً ، ولا يمكن أن يتصوَّر الإنسان مابها من ظلام ، خصوصاً سجن الطابق الأسفل ، ولاسيّما إذا لاحظت أن الممرات التى يستمد منها السجين النور مظلمة ظلاماً يحتاج السائر فيها إلى مصباح ولو كانت الشمس فى رابعة النهار !!!

وكان ذكر تلْك السجون يلقى الرعب فى قلوب أشجع الشجعان .

وكان يرى المتأمل إلى جانب تلك السجون المطابق المتصلة بقاعات (ديوان التفتيش) الغرف الفسيحة ، والأبهاء الفخمة ، وقد توفر فيها كل ألوان الرفاهية ، والنعيم المقيم .. ، فيها الرياش الفاخرة يتقلّب عليها رجال (المحكمة المقدّسة) فى الدِّمقس والحرير ، والمقاعد الوثيرة ، والأرائك والطنافس .. ، يأكلون مالذّ وطاب ، ويحتسُون مُعتَّق الخمور والأنْبذة ... ، يسكرون ويطربون على أنغام مايصْدرُ من فرائسهم من أنينٍ ، وصُراخٍ من عذابٍ أليم .

* * *

أنظمة السجون وقوانينها

لم يكن لدى السجين سوى قطعة خشب ، طولها متران وعرضها متر ونصف المتر ، وهى سريره على الأرض !!! ويعطى له غطاءان من الخيش ، يفترش واحداً ويغطّيه الآخر ، وتُعطى له قرميدة أو قطعة من البلاط تكون وسادةً له ، ويُتْرك له إناءان يحوى أحدهما ماءً للشُّرْب ويحفظ فى الثانى بوْله وبُرازه ، ويُترك له إناء آخر للزيْت يضع منه فى المصباح الذى يُلْزم بإضاءته ليْل نهار .

وهذا الأثاث !!! لِلذين هُم فى الحبْس الاحتياطى . وكانت جريرتهم صغيرة ، أمّا من عداهم فلا ...

وسبب الإلزام بإضاءة المصباح ليْل نهار كى لا يميِّز اللَّيْل من النهار !!!

وكان يُستعاض فى سجون إسبانيا عن المصابيح الزيتيّة بالشّموع ، ليذكر السجين بأنه أُصْبح فى عداد الأموات الذين تُوقد لهم الشموع فى عرفهم عند الاحتضار وبعده ، لِشِدَّةِ النّكاية بهم وهم أحياء ، ولِبَعْث الرهْبةِ فى قلوبهم ، فيلتزم الهدوء والسكون .

ولم يكن يُسْمح للسجين برفْع صَوْتِهِ حتى فى الصلاة ، بل يجب أن يلتزم الصَّمْت التام ، والويْل كل الويْل لمن خالف تلك الأنظمة أدنى مخالفة .

وكان يُفرض على كل سجينٍ منهم قرش واحد فى اليْوم ، فإذا ما انتهى الشهر طاف السّجان بالسُّجناء يجمع منهم القروش ، ويسأل كُلّ

واحدٍ منهم ماذا يرغب أن يَفْعل بها فى شهره التالى ؟ وماذا يريد من مأكلٍ مثلاً ؟

وإليك إحدى الإجابات النموذجية المحفوظة :

١ ــ تسعة قروش ليُقدَّم كل يوم صحن مرق لحْم ساخن .
٢ ــ ثمانية قروش ثمن خُبْز .
٣ ــ أربعة قروش ثمن جُبْن .
٤ ــ قرشان ثمن فاكهة .
٥ ــ أربعة قروش ثمن نبيذ .

والباقى وقدره ثلاثة قروش لغسل ثيابه .

وكان يصحب السجّان كاتبٌ يدوّن مطالب السجناء كُلاً على حِدَة ، فيقدم للسجين كُلّ ما أملاهُ على الكاتب وما أبداه من رغبات مع تقديمها تماماً فى مواعيد مضبوطة .

أما إذا جاء أمر من (الديوان) بإلغاء شئْء منها أو بإلغائها كُلّها فلا يُعطى شئْء ما ؛ وإذا اقَرّر المجلس شيئاً للسجين من الأطعمة فيجب على الكاتب والسجّان أن ينفّذا ذلك بكُلّ دِقّة ، وإلاّ نالهما من العقاب الصارم مايجعلهما عبرةً لغيرْهما ، لأنهما لم ينفّذا أوامر (المحكمة المقدّسة) التى كان رجالها يعتبرون أنفسهم نُوّاب الله فى أَرْضه .

أما من كان يستزيد فى المقرّر من طعام وخمر ــ وكان جُلُّهم من الغُرباء ــ فكان يجب عليهم أن يتقدَّموا لرجال الديوان ويشافهوهم بطلباتهم وحاجاتهم فيستمع لهم رجال (الديوان) وينصتوا وتُجاب الطلبات غالباً مالم يكن منها مايضر بالصِّحة ، وكانوا يقصدون بذلك أن

يُطيلُوا آجالهم لتنفذ فيهم مشيئة المحكمة المقدسة ولا يدعوهم يموتون من مرض تسبب عن طعام أو شراب .

وكان محظوراً على السجين أن يكلّم أحداً أو أن يرفع صَوْته سواء كان من الآلام أو للصلاة أو لاستغفار الله أو للترتيل أو للغناء أوْ لأىّ سبب آخر ، فكأنما قد انقطعت صلتُه بالعالم بأسره انقطاعاً تاماً ، ومن خالف تلك الأوامر عرّض نفسه للعذاب وللقصاص الأليم .

وكان حُرّاس السجون ورجال النظام فى تلْك السجون المظلمة ينقلون لرجال (الديوان المقدّس) كل مايحدث ، فلا تخفى عليهم خافية .

وكانت الممرات التى بها أبواب السجون ملأى بالسجّانين يستمعون لمعاشر البائسين فى المطابق ويأمرونهم ألا يرتكبوا مايحرّمه رجال التفتيش عليهم مرّة ، فإذا عاد أحدهم وارتكب مخالفة [على حدّ تعبيرهم] صدر الأمر بإرسال السجين إلى حضرة رجال المحكمة ، ويخرج المسكين أمام بقية المسجونين ، فإذا مَثَلَ أمام المحكمة أصدرت حكمها بسرْعةٍ بتأديبه وتعذيبه ، فيرُسل إلى قاعة التعذيب ، فيصيح من شِدّة الآلام التى يقاسيها حينئذٍ ويصرخ ، فإذا ماسمعه رفقاؤه فى السِّجْن مُلِئوا رُعْباً وآشْتَدّ بهم الحزْن والغمّ .

وكان محظوراً على السجين الاتيان بحركة أو الكلام وهو فى سجنه مَنْعاً باتاً ، حتى إن أحد المسجونين أُصيب بالسُّل بعد أن قضى زمناً طويلاً فى عذابه وسجنِهِ الرطب الموحش المظلم ، فأخذ يَسْعل رغم أنفه ، فأنذروه بأن لايعُود إلى السُّعال بَعْد ، فأجاب وهو خاشع ذليل أن هذا رغم إرادته ، وأنه لايمكنه الانقطاع عن السُّعال ...

واشتد عليه المرض فَأَكثَرَ من السُّعال ، فاقتيد إلى المحاكمة ، فقضت بِضَرْبِهِ بالعصىّ ، فَضُرب حتى سقط بيْن أيدى مُعذِّبيه القُساه ... ، واستراح من تعاسته ومرضه ... والعذاب .

والذى روى هذا شاهدُ عيانٍ اتُّهم بأنَّه من (الماسون) ، وسُجِن عام (١٧٤٣)م .

* * *

[ديوان التفتيش]
فى
(البُرْتغال)

بدأت (محاكم التفتيش) تباشر فظائعها ببلاد (البُرْتغال) حوالى سنة (١٥٤٧)م ، أيام الملك « جوان » ـــ الثالث ـــ أى عندما ابتدأت الأسرة المالكة هناك بالانحطاط ... ، ونرجو أن لا يُفهم من هذا أنه لم يكن هناك اضطهادات دينيّة عديدة وقعتْ على الناس فى بلاد « البُرْتغال » و« إسبانيا » قبل ذلك التاريخ !!

فكُلّ من درس التاريخ ـــ أو قرأه ـــ ، تاريخ تلْك العصور المظلمة ... ، يعلم شِدَّة غُلُوِّ الملك « فرديناند » فى تعصُّبه لمذهبه (الكاثوليكى) .. ، والذى كان يقول عبارته الشهيرة :

[يجب أن تكون إسبانيا إمّا كاثوليكيّة أو إسلاميّة]

ويعنى بذلك أنه يجب أن تدين البلاد بدينٍ واحدٍ وهو المذهب الكاثوليكى ـــ طبعْاً ـــ ، ويجب أن لاتدين بدينٍ آخر .

أما فى « البرتغال » فقد أدخل الملك « جوان » ـــ الثالث ـــ ذلك (الديوان) الخاص ، المعروف بقسوتِهِ وعُتُوِّه فى محاربة مَن خالفه .

وكان ذلك الملك يأْتى إلى ساحة المدينة التى كان يُحرْق بها مَنْ حكمتْ عليهم (محاكم التفتيش) بالحرْق والعذاب ، وكان يصحب معه الملكة والوزراء ورجال الدولة ، وكبار رجال الدين ، فيتبوءون مجالسهم فى

مكانٍ مرتفع مُزَيّنٍ بأحْسن زينة ليُمتّعوا النفس بمناظر التعذيب وحرْق إخوانهم فى البشرية وهم أحياء !!!

ويعيدون تمثيل قِصّة أصحاب الأُخدود الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ قُتِلَ أَصْحابُ الأُخدود * النّار ذاتِ الوقُود * إذْهُم عليْها قُعُود وهُمْ على مايَفْعَلُون بالمؤْمنين شُهُود ﴾ !!!

* * *

حَفْلَةُ حريق !!!

كان يتقدم الموكب كاهن يرتدى حُلَّةً بيضاء ، ويحمل صليباً أسود فى يده ، يترنّم بترانيم الموت . ويمر أوّلاً أمام عرش الملك ويعود فيقف فى الساحة ؛ ثم يأتى فريق من الكهنة بثياب بيضاء وصُلْبانٍ سوداء [وكانت رمْز (ديوان التفتيش)] ، ويترنّم الكهنة ويمرون أمام العرش ثم يقفون ، ثم يمر فريق من الشعب وهم يرتدون ملابس بيضاء حاملين صلباناً سوداء ، فيفعلون مثل مَنْ سبق ، ثم يمرّ المحكوم عليهم بالحرْق وقد غطّتهم القاذورات والطين والأوحال التى قذفهم بها متعصّبة الناس ظانّين أنهم يمجّدون الله والدين بقذْفهم أولئك المعذّبين .

وكان يحيط ـــ بهؤلاء ـــ السجانون وجنود الديوان والرجال المنوط بهم إجراء التعذيب ، فإذا ماوصل السجناء إلى الساحة أُصعدوا إلى أكوامٍ من الحطب عالية ، وفى وسط كل كوْمٍ صليب مثبت لكى يموت المعذّبون وهم ينظرون إلى ذلك الصليب .

ثم يرتقى رئيس المحكمة مرتفعاً أقيم فى وسط الميدان ـــ ساحة ريبْرا ـــ ويأخذ فى تلاوة الحكْم على معاشر الزنادقة الكُفّار !!! بصوتٍ جهورى وهو يقول :

إن هؤلاء الكَفَرة قد استحقُّوا الحرْق رجالاً ونساءً لأنهم [يهود ، أوْ من المسلمين ، أو من غير أتباع المذهب الكاثوليكى] ، وأنهم قد استخَفُّوا بالأحكام المقدّسة ، وأنهم قد اتخذوا الشيطان عدوَّ البشر وليّاً وحقروا الكنيسة وهم لايأتون ثمراً .

لذا وجب قطعهم وحرقهم بالنار عملاً بقوْل السيد المسيح له المجْد : (من ليس معنا فهو علينا ، وأن كل شجرة لاتثمر وجب قطعها وإلقاؤها فى النار . إن الذنب ذنبهم ، ودماؤهم على رؤوسهم) .

وبعد أن ينتهى من تلاوة ذلك الحكم يصرخ أحد الكهنة باللاتينيّة : « المجْد لسيدتنا والدة الإلّه ، ومباركٌ كل مؤمن طائع » . وعندها يمد الناس أيديهم لأخذ البركة .

ثم يتقدم الكاهن لآخر مرة من المجرمين وبيده صليب من العاج ، ويعرض عليهم التوبة وتقبيل الصليب ، فمن أبى لُعن لعنةً أبديّة ، وإذا ماساوره الخوف وقبّل الصليب ووعدهم بأن يبوح لهم باسماء غيره مِمّن يبحث عنهم (الديوان) ، وأن يُصَرِّح بما يفكر به ويعلن لهم توبته واستغفاره ، فعندئذٍ يعاد إلى السجن مرةً أُخرى ليتثبّتوا من توبته .

(ويقُال إنه نَدَر من خضع من أولئك المساقين للموت)

وعندما يصدر الأمر إلى جلّاديهم بإضرام النار ... يعلو صُراخهم وعويلهم ، وتتصاعد روائح شئٍ من أجسادهم فى الجوّ ... ، وكثيراً ماكانت جسومهم تظهر وهى تحترق سوداء ؛ وتظل النيران مشتعلة ثلاث ساعات بلا انقطاع والشعب يرقص حولها والكهنة يسبحّون !!! حتى تستحيل بقايا الحطب والجثث رماداً ... ، فينصرف الملك وحاشيته تشيّعهم دعوات الشعب وبركات القساوسة .

كان جواسيس (التفتيش) ينتشرون فى كل مكان وفى كل بيئة وعددهم ألوف مؤلفة ، وكان منهم كَهَنة وأطباء ومعلمون ، وكلهم جاد فى البحث عن أعداء الكنيسة الكاثوليكية وأعداء رجالها ؛ فإذا ماوقع مسكين في قبضتهم زُج فى أعماق السجون ويترك فيها ، وربّما تُنوسى

أمرُه ، فيلبث فيه إلى ماشاء الله ، والويْل لمن يسأل عنه وهو لايعلم لماذا سجن ، إلا إذا مثل أمام (محاكم التفتيش) وبُدىء في تقريره وسؤاله .

وكان رجال الكنيسة ينظرون إلى الاعتراف نظرة ذات مغزى وغرض بعيد ؛ لأنهم كانوا بواسطته يقبضون على أعدائهم ومناوئيهم ، وقد أمكنهم أن يجعلوا من الابن جاسوساً على أبيه فى حركاته وسكناتِهِ ، والأب على ابنه ، والزوج على زوجته ، والعكس ... ، فمن عرف شيئا ولم يبلغ عنه عُدَّ شريكا فى الزندقة والمروق عن الكثلكة واستحق العقاب الصارم ، تبعاً لإحدى مواد قانون (الديوان المقدّس) .

وكان الصمت فى غرفهم يعْدل العمل ضد الديوان جُرْماً ، وبذلك أوجدوا فى كل دارٍ وبيْن كل أسرة جواسيس لهم ينقلون إليهم أسرار المنازل والبيوت ومايدور بيْن أفراد الأسرة من أحاديث وأسرار تلك الأسرة .

وقد ذُكر أن أحد النبلاء أوْلَمَ لبعض أصدقائه الأخصاء مأدبة ، وكان يعدّ كل واحد منهم الآخر عِدْل نفسه وفيّاً مخلصاً ، ولما أُديرت بِنْتُ الحان وغابوا عن وعْيهم من شدَّة السُّكر والعربدة ولم يع كُلٌّ مايقولِ ، عندئذ تَفوَّه أحدهم بعباراتٍ كانت تُعتَبَر جريمة عند رجال الديوان .. ، فلما كان اليوم الثانى تغيّب ذلك المسكين عن أنظار عارفيه وأصحابه الذين علموا بعدئذٍ أنه أخذ إلى سجن (التفتيش) وكان بعض المدعوّين قد نقل ما قاله إلى رجاله .

وحدث أن امرأةً نامت وطفلها فى سرير وإلى جوارهما كان ينام الزَّوْج ، فتلفظ هذا المسكين بألفاظ مبهمة وهو غارق فى نومه ، فما كان من زوْجه إلاّ أن أسرعت لأحد قساوسة (التفتيش) فى الكنيسة المجاورة لهم (وكانت الكنائس لاتغلق أبوابها ليْل نهار وتلبث مضاءة)

وأخبرت البلْهاء ذلك الكاهن بما حدث ، وأن زوجها يتكلم وهو نائم بكلام مُبْهم لايُفهم ، وبعد أن فرغت من اعترافها أخذت تصلّى بالكنيسة برهةً ، ورجعت إلى دارها ... ولم تَرَ زوجها المسكين فى سريره .. ، وإذا به قد حُمل إلى سجون (التفتيش) لمحاكمته وتبْيان مايقول .. ، وما كان يُحدِّث به نفسه وهُو فى سريره !!!

ومَن قُبض عليه ، وكان ذنبه صغيراً ، لاطفَهُ رجال (التفتيش) وحوّلوه إلى جاسوس لهم يَنْقل إليهم أخبار الآخرين ، ومن عرفوا أنه من هذا القبيل أطلقوا سراحه فى الحال خشية أن يوضع فى الْمَطْبَق (المحْبَس) فيختلّ توازن عقله من هوْل مايرى !!!

ويُقال إن كثيرين ممن نزلُوا فى (ضيافة) تلك السجون المظلمة كانوا يفقدون عقولهم فيها ويقضون نحْبهم داخل تلك المطابق لما يشاهدونه من آلات التّعْذيب ومن مناظر رهيبة تقزّز النفوس .

وإذا سيق المذنب للمحاكمة جاءه نفر قد آرتدوا أَرْديةً سوداء ، وتقنّعوا بقناع أسود تظهر من خلفِهِ عيونهم .. وكأنما أحاط بالمتهم طائفة من الشياطين والأبالسة ؛ وإذا ماوقف أمام رجال المحكمة بُدىء فى استجوابه ... ، فيسْألونه أسئلة وهم يلزمون السكون ويتأمّلون أوراق الاتّهام طويلاً ويضعون أمامهم على المائدة صليباً من العاج .. يأمرون المتهم أن يُديم النّظر فيه أثناء المحاكمة ولا يحوّل بصره عنه .. ، ويدعون عدداً من الجنود والجلادين ، وطبيباً لفحص المتهم وجَسِّ نَبْضِهِ إذا أمروا بعذابه ، ولكى يقرّر رأيه عن حالته الصِحِّية وما ينتظر أن يحتمله من العذاب والآلام .. ، ولكيلا يموت بين أيديهم .. ، وليعترف عمّن يعرف عنهم شيْئا .. ، من معارفِهِ ورفاقه .

مَذْبحة « لِشْبونة »

ولقد وصف المؤرخ « دون جُومْس واسيلفا » مذبحة (١٥٠٦)م التى حدثت فى « لشبونة » عاصمة بلاد « البرتغال » أيام الملك « مانويل » ــ الأول ــ ، وكانت السبب فى إدخال (ديوان التفتيش) إلى « البرتغال » ــ ، فى كتابه : (أسرار ديوان التفتيش) .

[حدثت تلك المذبحة يوم الأحد !! العاشر من شهر أبريل (نيسان) سنة (١٥٠٦)م ، الموافق السادس عشر (١٦) من (ذى القعْده) سنة (٩١١)هـ ؛ وكان يوم عيد « الراعى الصالح » !!!]

قال المؤرخ :

(لمّا أُصْبح الصباح على مدينة « لِشْبُونة » العاصمة أخذت أجراس كل الكنائس تُصَلْصِل صليلاً متواصلاً بطيئاً يدخل على النفس الحزن ويبعث الانقباض فى الصَدْر ، رغم جمال ذلك اليوم وشمْسه الساطعة ، وصفاء سمائه وزُرْقتها الجميلة ، وكان يوْماً من أيام الربيع البديع .

وإذا مانظر إنسان إلى العاصمة فى التلال المحيطة بها ، رأى بَحْراً متحرِّكاً من الرؤوس البشريّة ، وَهُم جموع غفيرةٌ من الأهلين جاءوا ليحضروا ذلك الاحتفال الدينىّ ، وقد آعْتمّ كُلٌّ بعمامةٍ تُباين عمامة الآخر ، وتعصّبُوا بعصاباتٍ مختلفة متنوِّعة ، فمن اعتنق المسيحيّة وهو مُرْغم كانت عصابته حمراء ، وهؤلاء أجبرهم (ديوان التفتيش) على

الكثلكة ، وكانوا من اليهود والمسلمين من بقايا الفتْح الإسلامي ، وأما مَنْ كان من أصْلٍ مسيحى كانت عصابته أو قُبّعتُه من غير ألّوان .

وأُجْبَر (ديوان التفتيش) بعضاً من المسلمين واليهود على حضور تلك الاحتفالات ، وكانوا فى حالةٍ يُرْثى لها ، وتَتَفتَّتُ لها الاكباد أسىً وحسرة ، لما بهم من الذُّل والهوان .

أما جماعة المفكرين الأحرار الذين كانوا يُعَدّون فى نظر الكنيسة زنادقة فَجَرة ؛ لأنهم كانوا لايؤمنون بالكنيسة ولا يوافقونها على إتيان تلك الأعمال الوحشيّة ... ، أولئك الأحرار قد هربوا واختبئوا خشية جواسيس (التفتيش) أن يقبض عليهم بوشايتهم ، ويكون موتهم وهلاكهم محقّقاً محتَّماً فى مثل ذلك الاحتفال .

وكان ذلك البحر الزاخر من الناس يموج ويعلو كالأمواج ويرتطم عند باب الكنيسة الكبير ، وهناك أُقيم حوْض كبير من الرُّخام فيه الماء المقدّس ، فكان الناس يغمسون فيه أيديهم ويرسمون إشارة الصليب على جباهِهم ، ثم يتراجع فَوْج ليحلَّ محله فوج آخر للغرض نفسه .

وكان يشاهد وسط ساحة الكنيسة الكبيرة أعيان الشعب ورجال الدين وقد اصطفّ الحرس عن يمينٍ وشمال ، وكانوا من طبقات الأشراف بشعورهم المذهّبة ، وملابسهم الزرقاء المخملية .

وأُقيم مَذْبَح كبير وسط تلك الساحة العظيمة ، وقد غُطّى بالمخمل المذهّب ، أما الآنية التى كانت عليه فكانت كلها من الذهب والفضّة والبِلَّوْر .. ، كل ذلك لكى تبهر عيون الناس إذا ماوقعت عليها أشعة الشمس .

وأُقيم وراء ذلك المذبحْ وسط الساحة ، صليب كبير جدّاً ... عليه صورة المسيح مصلوباً ، وكأنّما هو يستعد بقبول توْبة الخاطئين والكَفَرة ، ومن لم يكن مسيحيّاً ولا يؤمن بأعمال الكنيسة ...

وإلى جوار ذلك الصليب أُقيمت منصَّة عليها آثار القديسين من عظام وصُوَر قديمة وقد زُيّنَتْ بالأحجار الكريمة ، ولها أُطُرٌ من الذهب والفضّة المصقولة الخالصة ، لها لمعان شديد فى ضوْء الشمس فتضيف إلى المنظر هيئة ووقاراً وأُبَّهة .

بركة البابا المقدسة

وآجتمعت جماعات من الشعب داخل الكنيسة وخارجها ، وأخذ يُحدِّث بَعْضُهم بَعْضاً عمّا كان (ديوان التفتيش) قد أَزمَعَ إجراءَهُ فى ذلك اليوم ... المنكود ...

وكان فى وسط المذبح نجمة كبيرة أَسْموها : « نجمة المؤمنين » أحدثت بها أشِعَّةُ الشمس لمعاناً يبهر الأنظار ويحدث أَلَماً شديداً فى عيون الناس .. ، المكرهين دائماً على التّحدْيق فيها .

... وصاح جاهل متعصّب من العامّة عندما نظر إلى تلْك النجمة اللامعة صارخاً :

ــ عجباً ... عجباً ...

وأخذ الناس يردّدون وراءه نداءه ، وكان صوتهم كالرَّعْد العَاصف المزمْجر :

ــ عجباً ... عجباً ... ، الويْل للزَّنادقة ...

وقال الكَهَنَةُ :

ــ عجباً ... عجباً ... أظْهِر مَجْدك يارب ، وبارك المؤمنين ...

وأخذ الناس يَقْرعون صُدَورهم ، فصاح الكهنةُ قائلين :

ــ ارْكعوا ياأهل «لِشْبونة» ... ، اركعوا فقد أُشْرق نور السيِّدة العذراء ...

وجاؤوا بالصُّلْبان من داخل الكنيسة وصاح أحد الكهنة مخاطباً تلْك الجموع :

ــ إن النور الذى تَروْن ليس بنورِ السيِّدة العذراء .. ولا هُو من نور الله ... بل هُو نور الشمس وآنعكاس أشعّتها ، وقد قالت السيِّدة إنها لاتُشْرق من نورها علينا لوجود كَفَرةٍ بيْننا يستحقُّون مشاهدة النور الإلٰهىّ ، فأرجو الله أنْ يُزيل أولئك الكُفّار عنّا ... ومن بيْننا ... ، هيّا ارْجُوه ...

فصاح الشعب المتعصّب ، كأنه رجل واحد ، وبصوتٍ هادرٍ قائلاً :

ــ الويْل للزنادقة ... الويْل لِلْكَفَرة ...

ثم نهضت تلك الألوف المؤلفة وسارت فى موكب كبير وأخذوا يصيحون بالويل والثُّبور وعظائم الأُمُور ، وبالقتْل لكل اليهود والزنادقة والكَفَرة والملاحدة ... ، واجتمع الشعبُ على يهودِىٍّ فقتلوهُ شرَّ قتْلة ، واعترض معترض عليهم ... ، فأسكتُوه بخناجرهم .. ، واشتد العجب والصُّراخ .. ، وسار الكهنةُ فى مقدّمة الجماهير تصحبهم صلبانهم وراية الخلاص لكى يؤجحوا من حماسة الجماهير ... المتعصبة الجاهلة ؛ وأخذت المذبحة تمتد رويْداً رويْداً إلى أنحاء المدينة ، وأخذ فى الهرب من الموْت كلّ من يتوقّع شرّاً ... ، فكانوا إذا وصلوا إلى البيْعة الكبيرة

ليحتموا بها طاردتْهم القساوسة حاملى الصُّلْبان ، فكان لابُدّ من وقوعهم فريسة للموْت بيد الشعْب الهائج ...

ولما انتصف النهار كانت الطرقات والميادين ملأى بالجثث هنا وهناك ، وقد جُمعت فى أكوامٍ مكدّسة ، وسار المنادون من قِبل (ديوان التفتيش) وهم يستنهضون الشعب لِقَتْل اليهود وكلّ مقاومٍ للكنيسة ، وهم يباركونهم إن فعلوا ذلك !!! ويقولون :
ـــ الويْل لهُم ... ، انْهَبُوا ... ومن لا ينهبْ معكم فأحرقوه بالنار !!!

وقَتَل الشعب الهائج النساء وهُنّ يحملْن أطفالهُنّ ... وقتلوا معهنّ أطفالهُنّ ؛ وكانوا يدخلون إلى البيوت ليقضوا على فرائسهم ، ثم يحرقون عليهم دُورَهُم .

وحاول بعض النسْوة تخليص أطفالهم برفعهم فوق رؤوسهنّ ، ولكن ... أيْن .. أيْن الخلاص ، والموْت الزؤام لهم بالمرصاد ، فالشعب ثائر ... وكهنَتُهُ تَسْتحِثُّه لارتكاب الفظائع التى تقشعِرُّ من ذِكْرها الأبدان .

ولما حلَّ الليْل وأرخى سُدُولَه ، آمتدّت المذابح ... ، والكهنةُ كالضبّاط يقودون الناس لارتكاب المنكرات .. ، وهم يحملون معهم تمثال العذراء ، وينشدون الأناشيد الدينية باللاتينية ، ويرد عليهم الشعب وهو يرتل لازمتها بلُغَةٍ ولهجةٍ مُستنْكرة ، أضف إلى ذلك صليل الأجراس المتوالى ... ، ورائحة الأجساد المشويّة ... يحملها دخان الحرائق .

واستمرّت المذبحة ... ، ومضى اليوم التالى بليْلِهِ .. ، ثم اليوْم الثالث ... ، والحالة تزداد سوءاً حتى آضطرت الحكومة للتدخُّل ، فبعثْت جُنْداً لِرَدّ السفّاكين ، وأعدمتْ بعض المذنبين شنْقاً ذرّاً للرّماد

فى العيون .. ، وإن يكن قد بقى غيرهم استمرّوا فى مذابحهم .

ثم رأى الكهنةُ أنه لايَجوزُ للشعْب أن يَقْتل الكَفَرة بيده من غير محاكمةٍ ــ ولوْ صُوريّة ــ فَسَعوا لتأسيس محكمة (ديوان التفتيش) فى « البرتغال » ، وبعد بحْثٍ فى المسألة رضى الملك « جوان » ــ الثالث ــ بتأسيس ذلك الديوان فى « البرتغال » .

* * *

الفصـل الرابع

- الوثائق التاريخية
- شهود عيان
- آلات التعذيب
- فرديناند وإيزابيلا
- صورة عن التصفية النهائية

مشاهير مجرمى الديوان

اشتهر من رؤساء « الديوان » الذين كانوا يُصّدرون الأحكام فى سَبْع مقاطعاتٍ فى « اسبانيا » ، :

١ ــ (توركويمادا)

٢ ــ (ديزا)

٣ ــ (سيزنيووس)

٤ ــ (فلويرنسيو)

٥ ــ (مانريكى)

٦ ــ (تالْيو)

٧ ــ (لوابيزا)

وهؤلاء السبعة كانوا قد أمروا بإحراق عدة آلاف من الناس وهُم أحياء ، وأشدّهم قسوة وفظاعة هو أوّلهم : (توركويمادا) .

مراسم الإحراق !

وإذا ماحُكم بالموْت أو بالحرْق على فرد ــ أو أكثر ــ طيف بهم قبْل يوم التنفيذ بيوْميْن فى أسواق المدينة وهُم مكبّلون بالأغْلال والأصفاد مطوّقين بالسلاسل الغليظة ، تحيط بهم فرقة ، من الجند تسلّحوا بالسيوف والقضبان الحديدية (على هيئة النبابيت) ؛ وفى خاتمة المطاف يُحشر المحكوم عليهم فى سجن واحد استعداداً ليوْم التنفيذ .

وتأتى فرقة من جنود الديوان فى منتصف ليلة التنفيذ وعلى رأس الفرقة عرفاؤهم وقوّادهم وجماعة القساوسة فيفتح السجانون الأبواب ويخرجون أولئك البائسين ، وعندما يبلغهم (نذير الشؤم) المكلف بأن ساعة العقاب قريبة لامناص منها ...

وكان المساكين يتلقون الخبر بثبات ورباطة جأش تُدهش رجال الديوان الذين يكررون النُّصْح لهم بالإقرار والاعتراف وهم يحمدون الله على قُرْبهم من الراحة الأبديّة التى هى خير من عذاب السجون .

وبعد الانتهاء من طلب الاعتراف وطلب الغفران ، تكمم أفواهُ أولئك المساكين ويُلْبسون لباس الإعدام الخاص ، وهو لمن حُكِم عليهم بالمْوت حرْقاً : قميص أصفر غمس فى شحم أو زيْت وقطران ورُسم عليه صور شياطين وأفاعى وتنّين .. !!؟ ويوضع على رؤوسهم قُبّعات من ورقٍ عليها مثل تلْك الرسوم .

وكان السجناء الآخرون يصحبون المحكوم عليهم وقد آرتدوا لباساً آخر .

وسبب تلك المصاحبة هو إرهابُهُم وتهديدُهم بمثل تلْك المواقف الرهيبة المناظر المرعبة المخيفة ، إذا هُم لم يُطيعوا « الديوان » فيعترفوا للمحكمة .

ومع آنبثاق الفجر يحضر إلى السجن كل رجال الديوان ليأْخُذَ كل واحدٍ منهم مكانه ويقوم بما عُهِد إليه من عمل عند تنفيذ الحكْم .

وعند الساعة السادسة صباحاً يخرج السجناء من السجن إلى الميدان الذى أمامه ، فيروْن سِماطاً قَدْ مُدَّ ، ومائدة كبيرة فوقها مالذّ

وطاب من شتىّ الطعام والخمور المعتقّة !!! فيؤمرون بالجلوس إليها وتناول آخر فطورٍ لهم فى هذه الحياة الدنيا .. !؟

وسبب تقديم ذلك الطعام والشراب هو أن يخدع رجال (الديوان) الشعب الجاهل المحتشد ، بأنهم يعاملون سجناءَهم وغرماءهم معاملة طيبة ، وأن هذا مثال ، مما كانوا يُعْطَوْن فى سجونهم .

وأىُّ إنسانٍ مُقْدِمٍ على الموْت ــ مثل أولئك التعساء ــ تكون لديْه شهيّةُ طعام أو شراب ؟؟؟

إن تلْك الموائد ــ ولاشك ــ هى لون من ألوان التعذيب النفسى !!!

وكان إلى جانب مائدة الطعام مائدة أخرى عليها أطواق حديدية ، تُوضَعُ فى الرقاب ، وأخشاب توضع فى الفم ، على شاكلة لجام الجياد .

فإذا مارفُعت راية (الديوان) إشارة للبدء فى التنفيذ تقدم الجلاّدُ من الضحايا وقال لهم :

ــ [يا ضحايا ديواننا المقدّس !! إن هذه الأطواق الحديدية لرقابكُم ، وهذه الكمامات لأفواهكم ، ويلزم كلاًّ منكم أن يتقدَّم فيضع طوقه فى عنقه وكمامته فى فمه ...]

أما أردية الرُّهبان : فملابس حمراء .. وقلائد ذهبيّة ... ، تسير بهم المواكب والمراكب الفخمة .

ويتقدم الملك ورجال البلاط والسلطة ورجال القضاء والعُوّاد ، ويَقف ألُوف الناس لمشاهدة حَرْق (الكُفّار) !! ، وقد هيىء الحطب ، وأُعِدَّ كل شىْء لإصعاد المحكومين إلى المحارق .

ويتقدّم رئيس (الديوان) من منصّة الملك الذى يقف له إجلالاً واحتراماً ، هو ومن فى حضرته من أساقفة ؛ ثم يقول للملك والذى يحمل فى يده صليباً :

ـــ يا صاحب الجلالة

بينا تحمل فى يدك هذا الصليب المقدّس ، ترانا ننتظر من جلالتكم أن تُقسموا على أن تعضدوا (الديوان المقدس) وأن تثبتوا سلطتنا فى هذه البلاد ...

فيقسم الملك يمينا يمليها عليه الأساقفة أمامه ...

ويستمر الرئيس فى القوْل :

ـــ وأن تقسم ياصاحب الجلالة على أن كل مايُعمله ديوان التفتيش وكل مايُجريه من الأحكام إنما هو مطابق لتعاليم الكنيسة الرسوليّة الرومانيّة ، وأنه أيضا مطابق لشرائع بلادكم التى ترمى إلى تطهير هذه البلاد من الكفرَة والزنادقة وأصحاب التعاليم الشيطانية .

فيقسم الملك أيْضاً بما يمليه عليه القساوسة من الأيْمان المغلّظة !!

ويستمر الرئيس فيقول :

ـــ ليُبارك الله جلالتكم وليمكِّنكُم من الحكم طويلاً فى الأرض مادُمْت سَنَداً لشرائع (الديوان المقدس) ؛ وشرائع الكنيسة الرسولية الرومانية .

ثم يجلس الملك ، ويتقدم كاتب (الديوان) إلى وسط الميدان ـــ وكانوا يتخيّرونه رجُلاً كبير الهامة ، ضخم الجثة ، جهورىّ الصوت ـــ فيقف على منصّة مرتفعة ويأخذ فى تلاوة صورة الحكم فى ورقةٍ فى يده ، والناسُ فى صَمْت ، وكأن على رؤوسهم الطير ...

وبعد الانتهاء من تلاوة الحكْم ، يتقدم (رئيس الديوان) ويمنح الغفران لأولئك المساكين ، ويأمر بترتيل مَزْمورٍ مطْلَعُه : [ارحمْنى ياربُّ كما شاءت رحمتُك]

فيرتل الناس والكهنة ذلك المزمور .

مكان الحرق أو الشنق !

ومكان الحرْق ــ أو الشنق ــ عبارة عن أربعة أعمدة ، وأحياناً عمود واحد ، أو جذْع شجرة مرتفع ، وحوله أكوام الحطب من كل جهة ، على عُلُوِّ ثلاثة أمتارٍ تقريباً من الأرض ، ويكون على هيئة مصطبة مربّعةٍ فى أعلاه ، والعمود بارز منها .

فكانوا يوقفون المحكوم عليه إلى هذا العمود ويربطون حبلاً فى رقبته ، ويربط الحبل إلى العمود ، ويلُفّ الجلاد الحبل على الرقبة عدّة مراتٍ ، وفى كل مرَّةٍ يشتدّ فى الضغط حتى يختنق المحكوم ... ، وأحياناً كانت الحبال تُشدّ إلى وسطِهِ فقط إذا ماتوسّل المسكين إليْهم أن لايخنقوه ... بل تُتْرك النيران تأكله وهو حىّ ... !!

وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود !!

ثم يصعد كاهن وفى يده صليب من العاج يعرضه على المسكين ليُقَبِّله قَبْل حَرْقه ، وذلك قُبَيْل إضرام النار بقليل .

وكل من مات فى سجون (الديوان) تُحْرق جثته ــ أَيْضاً ــ كى لايُعرَف له قَبْر .

وإذا ما انتهى الكاهن من مراسمه أُضرمت النيران دفعةً واحدة فى الحطب ، بينْما يترنّم الكهنة ويُصلُّون !!؟ ويبحث جواسيسهم فى وجوه الشعب يتفحّصونها ، ويستمعون لما يُقال هَمْساً ، فمن تأفّف ... أو أظهر عَطْفاً ... أو أبدى أى إشارة اشمئزاز ... ، أُلقى القبضُ عليه فى الحال ، وكثيراً ماكان يُضَمّ إلى السجناء فى الحال !!

كل هذا يحدث والحكومة مُلْزمة بإطاعة رجال (الديوان) .. ، وإذ أَبى حاكم إطاعة أوامر (الديوان) صَدَر أَمْر بحرمانه من الكنيسة ، فيسقط كل مالَهُ من حُرْمةٍ ، مهما كان شأْنه ، وإذا تمَّ لهم ذلك ، قبضوا عليه مع أسْرتِهِ وزجُّوا بهم فى أعماق السجون ، وعذّبوهم العذاب الأليم ، وقد يُقضى عليهم بالموْت شَنْقاً أو حُرْقاً .

وإذا ماتشفّع إنسان بالبابا من أجل إنسانٍ ، بعث البابا باسْمِهِ إلى (الديوان) ، ليكون ذلك عند رجال (الديوان) جُرْماً جديداً ، وجريمةً لاتُغتفر لِأنه تشفّع فيه : « الأبُ الأقدس » ...

إذ كانت كل تلك الأحكام الظالمة القاسية ، المغرقة فى الوحشيّة والبربريّة ، إنما تصْدُرُ باسْم « الأب الأقْدس » ـــ أى البابا نفسه .

بؤرة جواسيس يسوعية

يقول [يوجين بيليتّان] فى كتابه : « ديوان التفتيش » :

(لقد مَرَّ على إسبانيا حين من الدَّهْر تحوّلتْ فيه إلى بؤْرة جواسيس ووشاياتٍ [جزويتيَّة] ـــ يسوعيّة ـــ هائلة]

مثال على ذلك :

أبلغت مسيحيّة (الديوان) بأنّ أحد المتنصّرين المسمّى : « خْوان مدنْيا » قد عاد إلى إسلامه ، وكان ذلك فى شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة (١٥٢٨)م ـــ[ربيع الثانى ٩٣٦ هـ] وقالت إنها كانت تسكن مع أُسْرتِهِ سنة (١٥١٠)م فى منزل ، وكان هو يقيم مع ابنيْه وآبنتِهِ وصهْره ، فلاحظت أنهم لايأكُلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمور ابداً ، وأنهم يغسلون أقدامهم وأرجلهم حتى الوسط كل يوم سبْت وأحد .

وكان « خْوان » هذا رجُلاً هرِماً جاوز السبعين من عمره ، وكان يسكن « شقوبْية » وصناعتُهُ عمل الأوانى النحاسيّة .

فاستدْعتْه (محكمة التفتيش) ببلد « الوليد » لاستجوابه فقال إنه اعتنق الكثلكة سنة (١٥٠٢)م ، وفى نفس العام الذى نُفى فيه المسلمون من تلْك الجهات ، ولا يذكر أنه مارس شيئاً من تقاليد المسلمين وعاداتهم ، أما عن امتناعه عن أكل لحْم الخنزير وشُرب الخمر فذلك لأنه لم يَعْتد ذلك ، وقد نُصرِّ وهو فى سنٍّ متأخّرة ، لما كان فى الخامسة والأربعين ، وفى مثل هذا العُمر لايسهل تعوّد شيءٍ جديد ، وهم يستحمٌّ مساء السبت وصباح الأحد لأن حرفته تضطره لذلك .

وبين السبب الذى دعا المرأة إلى الوشاية فى حقّه بأنه حزازات فى نفسها وسوء أخلاقها ، وقرّر بأنها كثيراً ماتكْذب ، وأراد الاستشهاد بعِدّة متنصرِّين أمثاله لإثبات مايقول ، فأبت المحكمة أن تستمع منه شيْئا ، ولم يُفد الرجُل تأكيده بأنه شديد الإخلاص لِلْكثلكة ، ولافى آلْتجائه إلى المجلس الأعلى ، وقررّت المحكمةُ إحالته إلى التعذيب ... فإذا أقرّ بكُفْرِهِ !! كان ذلك سبيلاً لإعادة النظر فى أمره ، أما إذا أُصرَّ

فجزاؤه الغرامة ، وهدَّدتْه المحكمة بالتعذيب ... وأُخِذ إلى قاعة التعذيب ــ فعْلاً ــ وجُرِّد من ثيابه ، ورغم ذلك كله فإنه أصَرَّ على أقواله وقال بانه مضطر لنقْض مايقول لخوْفه .. ، فجُلِد ... وَسِيرَ بِهِ فى موكب حرِيق ، إرهاباً له ، وقُضى عليه بغراماتٍ وأَمْوالٍ يدفعها .

وقُبِضَ على شيْخٍ مُتَنصِّرٍ وهو فى سن السبعين سنة (١٥٦٠)م ، لأنه كان يُطالع كُتُباً عربيَّةً فى التوحيد الإسلامى ، ولم ينكر الرجُل التُّهْمة ولكنّه عارض فى اعتباره (كافراً) ، ولم يُفِدْ كلامه وتبريره لأعماله ، وحُكم على الرجل بحرْقِهِ وزُجّ به فى السجن حتى يوم التنفيذ ...

ولما كان الشيخ مرِيضاً ... فقد توفّى فى السجن .. ، فرؤى أوّلاً حرْق تمثالٍ يرمز لهُ !!! ولكنهم عادوا وقضوا بإخراج جثّتِهِ من القبْر وإحراقها علناً فى ... حَفْلَةِ حريق !!؟؟ ؛ وأن يلحق كفره وإثمه ذِكْراه فتبقى مُلَوَّثةً ، وتلحق أُسْرته فلا يُباح لأحد أبنائه أن يتقلَّد مناصب أو أعمالاً .

ثم صودرت أموال الشيْخ ... ، وهو الشىء المهم ــ جداً ــ عند رجال (التفتيش) ، وشياطين محكمة « مُرْسية » .

وبعد ذلك بثلاث سنوات قضت نفس المحكمة بجلْد متنصِّرٍ مائة جلْدة وبتسييره فى موكب حريق إرهاباً له لأنه طَعَنَ فى قانونٍ أصدره (الديوان) ... ، وذلك باللّغة العربية !!؟

وفى السنة الثالثة اتُّهم شاب متنصرّ من «أَرْبولة» بأنه ساحر ، وبأنه قد عاد إلى الإسلام .

[وقلّما كانت حفلة حريق تخلو من مُتَّهم بالسِّحْر فى ذلك العصر ، سيّما فى الجهات الشمالية]

وذكر من أبلغوا (الديوان) بأن ذلك الشاب قد أبْرأ عِدَّة مرضى بوسائل غريبة لأنه محالف للشيطان ، فزُج به فى السجن ، واعترف أمام محكمة « مُرْسية » بأنه عالج بعض المرضى ولكن بغيْر سِحْر أوْ شَعْوذة وإنما بواسطة عقاقير، أما الحُجُب والتعاويذ فكان يقصد بها التأثير فى نفس القوم الذين كانوا يعتقدون فيها وما كانوا يعرفون طِبّاً ولادواء سواها ، وقال بأن الشفاء راجعٌ إلى تلْك العقاقير ذاتها ؛ ولم يكن مُسببا عن أدْعيةٍ وحُجُب ... ، وعلى العموم فإنه كان أَخَذَ كتاباً عربيّاً من متنصرٌ آخر فيه وصف لتعاطى الأدوية كما أن به ذكْر بعض الأدعية والتعاويذ .

وقصد رجال المحكمة إلى اعترافه بأنه محالف للشيْطان وأنّه ساحِرٌ [طبعاً] إذا اعترف بذلك واستعمل معه كل الوسائل لحمله على ذلك حتى طمع فى العفو باعترافه بأنه حليف الشيطان ، ولذا فهو يأسف على عمله وأنه يرجو من القضاة عفْواً وصفْحاً ...

ولمّا نال قضاتُهُ ماكانوا يَبْغُون من اعترافِهِ أمروا بجلْدِهِ مائتىْ جلْدة وبإرهابه بواسطة تسييره فى موكب حريق .!! ، وحكموا عليه بخمس سنين فى الأشغال الشاقة من أعْمال السُّفُن .

وحُرِقت مُتنصرِّة سنة (١٥٧٥)م لاتهامها بالكُفْر والإلحاد ، وقد أجبرت على الاعتراف بذلك تحت تأثير التعذيب فى سجن (الديوان) ، ثم عادت فأنكرت اعترافها ، ولم يُفِد كل ذلك امام قسوة قلوب رجال (الديوان) .

وكل مَنْ تقدَّم للديوان بالدَّس فى حقّ غيره لإهلاكه وتعذيبه ، أمكنه ذلك .

تهم غريبة توجه لبقايا المسلمين !!

من التهم الغريبة !! أن فلاناً أنشد أغانى عربيّة !! أو أنه يُكْثر من الاستحمام كما هو عند المسلمين !! أو لدفاعِهِ ــ ولو بكلمةٍ واحدةٍ ــ عن « محمد بن عبد الله » ــ ﷺ ــ !! أو لتكْفين ميتٍ بأثواب جديدة ، أو الامتناع عن أُكْل لحم الخنزير وشُرْب النبيذ وصَبْغ الْيد بالخضاب !! أو لإحراز كتبٍ عربية !! أو لقيامه إلى الصلاة !! أو صَوْمِهِ !! أوْ لوضوئه !! أو لوجود أوراق باللّغة العربيّة أو قرآنٍ عند المتهم ...، فكان العقاب شديداً من إرهابٍ وحرْقٍ وجلْدٍ ومصادرة وتعذيب وتشهير ... بإركاب المتّهم حماراً وقد عُلّق بظهْره لوحة فيها اسمُهُ وتُهْمته ... ثم يُطافُ به فى أرجاء المدينة ...] ــ انتهى ــ

شهود عيان

وكتب [الكولونيل « ليمونسْكى »] أحد ضباط الحملة الفرنسية فى إسبانيا قال :

[كُنْتُ فى سنة (١٨٠٩)م مُلْحقاً بالجيش الفرنسى الذى كان يقاتل فى اسبانيا ، وكُنْتُ مع فرقتى ــ من الجيش ــ الذى احتل « مدريد » ــ العاصمة ــ ، وكان الامبراطور نابليون أصدر مرسوماً سنة (١٨٠٨)م بإلغاء (دواوين التفتيش) فى المملكة الاسبانية ، ولكن هذا الأمر أُهمل ولم يُعمل به بسبب الحالة الحربية والاضطرابات

السياسية التى كانت سائدةً ذلك الوقت .

وعلى ذلك صَمّم رُهبان « الجزْويت » ـــ اليسوعيين ـــ أصحاب ذلك (الديوان) أن يقتُلوا ـــ أو يعذّبوا ـــ كل فرنسيٌّ يقع فى أيديهم انتقاماً من ذلك القرار ، وذلك لإلقاء الرُّعْب فى قلوب الفرنسيين بطريقةٍ تضطرُّهم إلى إخلاء البلاد ... ، ليخلُوا لهم الجوّ .

وبينما أسيرُ فى إحدى الليالى بين الساعة العاشرة والحادية عشرة فى شارع من شوارع « مدريد » ، لايمرّ فيه الناس كثيراً ، إذا باثنيْن مسلَّحيْن قد هجما علىَّ يريدان قتْلى ، فدافعْتُ عن نفسى دفاع المستميت ، ولم ينجّنى منهم إلاَّ سريَّة فرنسية قادمة كانت تقوم بدورياتها فى المدينة ، وكانت السريّة من الخيّالة تطوف البلد طول الّلْيل بالمصابيح لحفْظ النظام .

ولمّا شاهد القاتلان ذلك لاذا بالفرار .. ، وتَبيَّن لنا أن هذيْن الرجُليْن من جنودِ (ديوان التفتيش) !!؟؟ عرفْنا هذا من ملابسهما المميّزة .

فأسْرعْتُ إلى الماريشال « سُولْت » ـــ حاكم « مدريد » العسكرى حينذاك ـــ وأطلعتُه على ماحدث .. ، فغضب الماريشال وقال : [أنا لاأشُكّ بأنَّ من قُتِل ويُقْتل من الجنود كل ليلةٍ إنما يكون بأيْدى أولئك الأشرار ، ولابُدّ لنا من معاقبتهم وتنفيذ قرارا الامبراطور ... ، والآن ... لك أن تأْخُذَ مَعَكَ ألْف جُنْدى وأربعة مدافع وتهاجم ديْر (ديوان التفتيش) وتقبض على أولئك الرُّهبان الأبالسة ، هذا إذا رأيْت أن مايُنسب إليْهم من الفظائع حقيقىّ .. ، ولِنقْتصّ منهم بمحاكمتهم أمام مجلسٍ عسكرى] .

دير ديوان التفتيش

وعند الساعة الرابعة صباحاً ركبْتُ على رأس تلك الحملة وقصدنا ديْر (ديوان التفتيش) ، وكان يَبْعُدُ خمسة أميالٍ عن مدينة « مدريد » ... ، فلمْ يَدْرِ الرُّهبان إلاّ والجنود تحيط بديْرهم والمدافع منصوبة عليه .

وكان هذا الديْر عبارة عن بناء ضخم أشبه بالقلاع ، ولهُ أسوار عالية جداً تحرسها فرقة من جُنْد اليسوعيين ؛ فتقدَّمْتُ من باب الديْر وخاطبت الحارس الذى كان واقفاً على السُّور فوق الباب وأمرْته باسم الامبراطور « نابليون » أن يفتح الباب ... ، وظَهَر لى أن هذا الحارس قد ٱلتفت إلى الداخل وأخذ يكلّم أشخاصاً لانراهم .. ، ولما انتهى من حديثه عاد وأخذ بندقيّته وأطلق علينا الرصاص ، ثم انهالت علينا نيران البنادق من كل جهة ، فقُتل بعض رجالى وجُرح البعض .. ، عندئذ أمرْت الجنود أن يهاجموا الدير ويقتحموه عنوةً .. لأن إطلاق الرصاص من « الجزْويت » كان بمثابة رفْض ، وأنهم لن يفتحوا الباب إلا بالقُوّة ...

وٱنهال الرصاص على الباب ، فأخذنا بإطلاق المدافع على أسْوار الديْر .. وعلى الباب .. ، وجاء الجنود بأخشاب سميكةٍ اتخذوها متاريس لهم تقيهم رصاص جنود (التفتيش) الذى انْهمر كالمطر الغزير .

وبعد أن دامت المعركة نصف ساعةٍ فتحت ثغرة واسعة فى الحائط دخل منها الجيش وٱمتَلك الديْر ، وكنت أنا وبعض الضباط الآخرين أول الداخلين .

(العصابة) اليسوعية

فأسرع رُهبان اليسوعيين للقائنا مرحبِّين : بوجوهٍ باشّةٍ ، مستفهمين عن سبب قدومنا على هذه الحال .. !! كأن لم يكن من شيءٍ بيننا !!؟ ولم تكن مَوْقعة !!؟ ولم يكن قتال بيْن جنودنا وجنودهم !!؟ ثم انهالُوا على جنودهم تعنيفاً وتأْنيباً لمقاومتهم لنا ، وقالوا لهم : إن الفرنسيين أصدقاء لنا ، فمرْحباً بِهِم !!؟

ولكن لم تَنْطل حيلتُهُم عليَّ ، بل أمرْت الجنود بالقبض على أولئك القساوسة المنافقين ، وعلى جنودهم ، لتقديمهم لمجلس عسكرى .

وأخذنا نبحث عن قاعات التعذيب المشهورة ، التى كان بها من صنوف التعذيب ماتَقْشَعِرُّ من ذكره الأبدان وتتقَزّزُ منه النفوس .

وطُفْنا بغُرف الدير فرأينا مابها من أثاثٍ فاخر ثمين ، ورياش وكراسى هزّازة ، وسجاجيد فارسيّة ، ولوْحات ثمينة نادرة ، ومكاتب كبيرة ... ، وقد صُنعت أرض تلْك الغرف من خشب (الموجَنَة) المصقول المدهون بالشمع ، وبطريقة عجيبة ...

وكان شذا العطور يعبق فى أرجاء تلْك الغرف ، فهى أشبه بأبهاء القصور الفخمة الكبيرة التى لاتكون إلا لمُلوكٍ قَصَروا حياتهم على التّرف واللهو .

وعلمنا أن تلك الروائح العطريّة كانت تنبعث من شمْع مُوقد دائماً أمام صُوَر رجال تلْك (العصابة) !! اليسوعيّة ؛ ويظهر أن الشمع قد عُجِن بماء الورْد .

وكان مجهودنا يذهب سُدىً فى محاولة العثور على قاعات التعذيب ، بعد أن فَحَصْنا كل غُرف الدير وممّراته وأقبيته ، ولم نجد شيْئاً يدلُّ عليها ... ، فعزمنا على الخروج من الديْر ، وكدْنا نقنع بتقديم أولئك اليسوعيين أمام المجلس العسكرى فقط ، بتهمة المقاومة ، وكانوا يقسمون ويؤكلون أن وجود مايشُاع عنهم من أمورٍ فى ديْرهم ليس إلا تهمة كاذبة باطلة .. ، وأنها حديث خرافة .. ، ولكنهم يتحمّلون ذلك فى سبيل الله !!!؟؟

وصار زعيمهم يؤكّد لنا مايقول بصوْتٍ خافت وهو خاشع الرأس ، وعيناه مغروْرقتان بالدَّمْع الهتون ، وهى ــ ولاشك ــ دموع التماسيح ... وكادوا يخدعوننا ... ، فأعطيْت الجنود الأوامر بالاستعداد لمغادرة الدَّيْر ، فاستمهلنى « الليفتنانْت ــ دى لِيلْ » وقال :
ــ أَتَسْمَح لى ياحضرة « الكولونيل » أن أقول لك إن مهمتنا لم تَنْتَهِ حتى الآن ...
فقلتُ له : ألم نفتّش كل الدير ولم نعثر على شىء ؟ ففيمَ تَرْغَب ؟
قال : أجل قد فتشنا ... ، ولكننى أرغب فى فحص أرض هذه الغرف ، وأدقّق فى فحصها وامتحانها ، فإن قلْبى يحدثنى بأن السرّ هو فى الأرض !! وأن هذه الغرف الفخمة تستْر تحتها ماجئنا نبحث عنه ...

وعندها نظر الرُّهبان بعضهم إلى بعض نظرات ذات معنى . وأَذنْت للضابط بالبحث .

فأمر الجنود ــ عندئذ ــ برفْع الأبسطة والسجاجيد عن الأرض ، فرُفعت ، ثم أمرهم بأن يصبّوا ماءً بكثرة فى أرض كل غرفة على حدة ، ففعلوا ... ، وكنا نرقُب الماء فإذا بالأرض تبتلعه فى إحدى الغرف ، وإذا به يتسرّب إلى أسفل ، فَصَفَّق الضابط « دى لِيلْ » من شِدّة الفرح .

وقال : هاهو ذا البَاب ، انظروا ... ، فنظرنا ، وإذا الباب قد ظهر ، وهو قَطْع من أرض الغرفة يُفْتح بطريقة شيطانية ، بواسطة حلقةٍ صغيرة وضعت إلى جوارها رِجْل مكتب الرئيس .

وأخذ الجند فى تكسير ذلك الباب العجيب بأعقاب بنادقهم ، وأحاطت فرقة من الجند بعصابة اليسوعيين الذين اصفرَّتْ وجوههم وعلتْها غَبرة ، وخارتْ قواهم من الفزع والهلع .

وفُتِحَ الباب ...

فظهر لنا سُلَّم يؤدى إلى باطن الأرض ، فأسرعتُ وأخذتُ شمعة كبيرة ، أطول من مترْ ارتفاعاً ، أُنيرت أمام صورة أحد أولئك الرؤساء لمحاكم (التفتيش) ورؤساء (الديوان المقدّس) .

ولمّا همْمت بالنزول وضع أحد اليسوعيين يده على كتفى متلّطفاً ، وقال لى :

ــ أرجوك يابنى أن لاتحمل هذه الشمعة بيدك الملوَّثة بدم القتال ، لأنها شمعة ، مقدّسة ؟؟!!

فأجبْته : هنا حق ــ ياهنا ــ ... فإنه لايليق بيدى أن تتنجّس بلمْس شمعتكم الملوَّثة بدماء الأبرياء ، وسنرى الآن من هو النجسُ مِنّا ، ومن مِنّا القاتل السَّفّاك ؟!

قاعة المحكمة وعرش الدينونة

وهبطت على السلم يتبعنى بقية الضباط والجنود شاهرى سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج ، فإذا بنا فى غرفة كبيرة مربّعة ، كانت

تسمى عندهم بقاعة المحكمة ، فى وسطها عمود من الرخام ، به حلقة حديدية ضخمة رُبطت بها سلاسل كانوا يقيدون فيها فرائسهم التى تكون رهن المحاكمة .

وأمام ذلك العمود « عرش الديْنونة » كما كانوا يسمّونه هم ، وكان عبارة عن مصطبة (منصّة) عاليه يجلس عليها رئيس (ديوان التفتيش) ، وإلى جانبىْ ذلك المقعد المرتفع أماكن لجلوس جماعة القضاة ، وكانت أوْطأ قليلاً من المقعد .

غرف آلات التعذيب

ثم توجهنا لغرف آلات التعذيب وتمزيق الأجساد البشرية ، وقد امتدت كل تلك الغرف إلى مسافات كبيرة ، وكانت كلها تحت الأرض ، وقد رأيْنا بها مايستثير النفس ويدعوها أن تتقزّز ماعاشت ، وآمتدّ بها العمر .

رأينا غرفاً صغيرة بحجم الإنسان ، بعضها عمودى ، وبعضها أفقىّ ، فيبقى سجين العمودية فيها واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه ، ويبقى سجين الأفقية ممّدداً حتى يموت .. ، وتبقى الجثة فى السجن الضيق حتى تبلى ويسقط اللحم عن العظم ...

ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد البالية فُتحت كُوّة صغيرة إلى الخارج .

وقد عثرنا على عدّة هياكل بشريّة لاتزال فى أغلالها سجينة مقيدة ؛ أما السجناء فرجال ونساء ، تتفاوت أعمارهم بيْن الرابعة عشرة والسبعين .

وقد تيسر لنا فكاك بعض السجناء الأحياء من أغلالهم وهم على آخر رمق من الحياة ، وقد جُنّ بعضهم خوفاً وهلعاً ... لكثرة مالاقوا من عذاب .

وكان السجناء عرايا زيادة فى النكاية بهم ، وقد آضطر الجنود أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها النساء السجينات .

وأُخذ السجناء إلى النور تدريجيّاً لئلا تؤثر مفاجأة النور على أبصارهم .

وقد أخذ السجناء يبكون فرحاً وأخذوا يقبّلون أيدى الجنود وأرجلهم لأنهم أنقذوهم وأعادوهم إلى الحياة بعد الموت المحقق والعذاب الأليم .

آلات التعذيب !!

ولما انتهينا من ذلك ، توجهنا إلى غرف آلات التعذيب ، فرأينا هناك ماتقشعرّ لهوْله الأبْدان :

فقد **عثرنا** على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم ؛ وكان يَبدأ بسحْق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليديْن ، كل ذلك على سبيل التدريج حتى تأتى الآلة على كل الجسد فيخرج من الجانب الآخر لها كتْلة واحدة .

وعثرنا على صندوق فى حجم رأس الإنسان تماماً ، توضع فيه الرأس بعد أن تربط أيدى وأرجل صاحبها بالسلاسل ، فلا يقوى على الحراك ، وتُقْطر على رأسه من ثُقْب فى أعلى الصندوق نُقط الماء البارد ،

فتقع على رأسه بانتظام ، فى كل دقيقةٍ نُقطة .. ، وقد جُنَّ الكثيرون بسبب ذلك اللون من العذاب .. قبل الاعتراف ؛ ويبقى المعذب على حاله هذه حتى يموت .

وعثرنا على آلة ثالثةٍ للتعذيب تُسَمّى : « السيِّدة الجميلة » !!! وهى عبارة عن تابوتٍ تنام فيه صورة امرأةٍ جميلة ، مرسومة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة .. ! وكانوا يطرحون المعذّب الشاب فوق هذه الصورة ويطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه ــ بعُنْف ــ ، فتمزّق السكاكين جسم الشاب وتقطعه إرْباً إرْباً ...

كما عثرنا على عِدّة آلاتٍ لِسلِّ اللّسان ، ولتمزيق أثداء النساء وسحْبها من الصدور بواسطة كلاليب حديديّة حادة ، ومجالد من الحديد الشائك لِجَلْدِ المعذّبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم من العظْم .

وصل خبر هذا الهجوم على ديْر (ديوان التفتيش) إلى « مدريد » ، فهبَّ أُلوف من الناس ليروا ماحدث ، وخيّل إليْنا أنّه يَوْم الحشْر .

ولما شاهد الناس صنوف التعذيب وآلاته الجهنميّة ورأوها رأى العين ، جُنّ جُنُونهم ، واشتعلوا بنيران الغيظ ... وكانوا كالذى مسّه الجنّ ... فأمسكوا برئيس أولئك اليسوعيين ووضعوه فى آلةٍ تكسير العظام ... فلمْ تُشفِقْ عليه ... ودَقّت عظامه دقّاً ، وسحقتْها سَحْقاً ، وأمْسكوا كاتم سِرّه وزفُّوه إلى السيّدة الجميلة وأُطبقوا عليه الأبواب فمزّقَتْه السكاكين تمزيقاً .

ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بباقى طغمة اليسوعيين وبقيّة الرهبان مافعلوهُ أوّلاً .

ولم يَمْض نصف ساعة حتى قضى الشعب على ثلاثة عشر راهباً من تلْك العصابة الآثمة ؛ ثم أخذ الشعب ينهب ما فى الدَّيْر ، وقد عثرنا على اسماء ألوف من الأغنياء فى سجلات (الديوان) السرِّية ، وهم السُّراة الذين قضوا عليهم لابتزاز أموالهم ؛ وكانوا يضطرونهم إلى كتابة إقرارات تُحوَّل بموجبها أموالهم إلى اليسوعيين ، فإذا ماتَمَّ لهُم ذلك عذّبُوهُم وقَتَلُوهم بآلاتهم .

أعظم يوم تاريخى شهده العالم بعد يوم الباستيل :

ويمكننى أن أقول بأن ذلك اليوم كان أعظم يَوْم تاريخىّ شهده العالم بعد يوم (الباستيل)[1] ، وقد عانق الآباء أبناءهم ، والأبناء آباءهم ، بعد مامرَّ بهم من أيام العذاب ، وقبَّلت النساء بناتهنّ اللواتى قُضى علىِ عفافِهن فى تِلْك المطابق اغتصاباً .. ، وآنهال التَّقْبيل على أيدى وأَقْدام الجنْد ، خصوصاً من النساء اللواتى آنتهكت طُغمة (الديوان) ـــ المنجَّس ـــ عفافهن واغتصبوهُن فى تلك المطابق اغتصابا .

والحق أقول إن القلم واللسان ليعجزان عن وصْف مارأيْناه فى ذلك الديْر من الفظاعة والبربريّة التى لا تخطر على عقل بشر سوى الشياطين الذين قد يعجزون هُم أيضاً عن الإتيان بمثْل هذه الأعمال .]

[انتهى]

---

(١) يوم الهجوم على سجن (الباستيل) فى فرنسا (١٤) يوليو سنه ١٧٨٩ م ؛ ذكرى الثورة الفرنسية .

« فَرْدِينانْد » و« إيزابيلاّ »

اتحَدَتْ مملكتىْ « الأراغون » و« قشتالة » سنة (١٤٧٩)م ــ الموافق (٨٨٤)هـ ؛ وكان « فرديناند » ــ الكاثوليكى المتعصب ــ ملكاً على الأولى ، و« إيزابيلا » ملكة على الثانية .

وقد وقعت الملكة تحت تأثير « تُوماس دى تركويمادا » ، أحد الرُّهبان « الدومينيكيّين » ؛ وكان قسّيساً لها قبل أن تكون ملكة ، وحَمَلها يَوْماً على أن تَعِدَهُ بتكريس حياتها لاستئصال (الكفرة) إذا هى وليتْ الْمُلْك .

وقد عُرف عن ذلك الراهب تعصُّبه ُالشديد وبُغْضه لكُل من خالف الكثلكة ، ويَستخدم كل وسيلة لاستئصالهم ؛ وانقادت الملكة إلى إرشاداتِهِ وتوجيهاته !! وأقنعتْ زوجْها ، واستصْدرا أمراً من البابا « سكْتُوس » ــ الرابع ــ لإنشاء (ديوان مقدّس) فى قشتاله ، فلم يتأخرّ البابا عن إصدار أمره فى نوفمبر (تشرين الثانى) سنة (١٤٧٨)م ، الموافق : رمضان سنة (٨٨٣)هـ ؛ ثم أنشىء (ديوان) فى « إشبيلية » فى سبتمبر (أيلول) سنة (١٤٨٠)م الموافق : رجب سنة (٨٨٥)هـ .

ولقد أُثر عن « إيزابيلا » قولها :

[إن حُبَّ « المسيح » و« العذراء » جعلنى أميل لارتكاب الأعمال المؤدية إلى البؤس والشقاء وخراب البلاد والْمُلْك] .

وقد عُيّن « توركويمادا » رئيساً عاما لِـ (ديوان التفتيش) بأمْرٍ من البابا « بنْقو » ــ الرابع ــ سنة (١٤٤٣)م ، الموافق (٨٤٧)هـ ؛ فكان

أوْل رئيس لهذا الديوان ؛ وكان مركز سلطته فى مقاطعتىْ « الأراغون » و« كستيجا » ؛ وهُو من أُسرةٍ عرفت بالقسوة والشدّة ، وكثيرا ما استخدم أجدادُه كجلادين فى بلاط الملوك الأوّلين ، ولكنه فاقهُم فظاعة وقسوةً وجبروتاً ، حتى ليُقال بأنه هو الذى تفنّن فى أنواع التعذيب ... من ناحية الأسلوب والآلة .. !!

وسبب مَوْته أنه أراد الاعتداء على عفاف فتاةٍ جميلة ، ثم يأمر بقتلها بعد ذلك كما جرت العادة .. ، فما كان منها إلاّ أن دسَّت له السُّم فى خَمْرٍ بيدها .

أما البابا « بنْتو » ــ الرابع ــ الذى عيّن « تركويمادا » ــ فقد أدْخله بعد موْته ــ على هذه الصورة ــ فى حظيرة القدّيسين !!؟؟

وقد ظلّ ذلك الشرِّير سَبْع عشرة سنة فى إسبانيا ، يسرح ويمرح ، حرق فى أثنائها سبعة عشر ألف شخص وهم على قيْد الحياة .

ولما مات ذلك العاتى أصدر البابا أمره بأن تكون (محكمة التفتيش) مختلطة من جميع طبقات الرهبان ، وأن تصدر الأحكام باسم البابا ، ومن ذلك الوقت أطلق عليها اسم (المحكمة المقدسة) ، وكان ذلك سنة (١٤٨١)م الموافق (٨٨٦)هـ .

وقد صَدر مرسوم ملكى من ملكىْ إسبانيا « فرديناند » و« إيزابيلا » بتأسيس ذلك (الديوان) و(المحكمة المقدسة) وأن تزاول أعمالها البربرية فى كل الجهات التابعة لهذيْن الملكيْن .

وكان الرُّهْبان والراهبات فى ذلك العهْد يُدْعَوْن بـ « آباء الإيمان » ؛ وكان المرسوم يعُطى رجال الكنيسة الحق فى إدارة شؤون ذلك (الديوان) .

صورة عن التَّصْفية النهائية

قُبض على مُسْلم وسيق إلى المحاكمة .. ، وكان ثبات ذلك الرجل أمام هيئة المحكمة مدعاة إلى زيادة حفيظتهم عليه والمبالغة فى تعذيبه .

أوقف أمام هيئة المحكمة فقال الرئيس لجنود (التفتيش) :

ــ ضَعُوا الحديد فى أصابِعِه وقدِّموهُ إلينا ... ،

ففعلوا .

ولم يستطع ذلك المسكين الوقوف لِشدّة الألم فسقط مغشيّاً عليه ، فقال الرئيس :

ــ أَوْقفوه ...

فأجاب أحد الحراس :

ــ إنه لايقوى على الوقوف.

فقال الرئيس :

ــ إذاً .. ضَعُوهُ فى التابوت فإنه يقف فيه !!

فوضعوه فى التابوت ، وهو صندوق مربّع فيه مسامير من الداخل ، فاضطر المعذّب أن يقف رغم مابِهِ من إعياءٍ وضعف ، ثم رفعوا الكمامة التى كانت على فمه ليتمكّن من الإجابة على الأسئلة ، وعندها تنفّس المسكين الصّعداء طويلاً ؛ فأمر الرئيس بأن يسقوه قليلاً من الخمْر ، فلما شرب قليلاً منها تفتحت عيناه ، وحدث لديْه شيء من الانتعاش ، وفحصه الطبيب حتى علم أنه قادر على الوقوف والاستجواب فأبلغ ذلك هيئة المحكمة .

فوجّه إليه الرئيس الأسئلة التالية :

ــ ماآسمُك ؟

ـــ أنا مسلم مغربي

ـــ كلا ... بل آذكر اسمك المسيحيّ الجديد

ـــ (صَمُوئيل فرنانْدس) !!؟

ـــ إن صموئيل هذا .. اسم يهودى

ـــ لقد كان المسيح يهوديّاً أيضاً

ـــ قُلْ صِدْقاً : كم عُمْرك ؟

ـــ ثلاث وثلاثون سنة مثل عُمر السيِّد المسيح .

ـــ إذاً أَنْتَ مستعدٌ للتضْحية ؟

ـــ بإذن الله ...

ـــ أَتَقْبل ذلك وأنت راضٍ ؟

ـــ نعم

ـــ إذاً قُلْ : من هُوَ إلٰهُك ؟

ـــ هو إلٰهُكُم نفسه .

ـــ وما اسمُهُ ؟

ـــ الله ... فى سماء ملكوتِهِ

ـــ بل قُلْ معى : يسُوع المسيح ..

فأجاب الرجل وهو يرتعد :

ـــ يسوع المسيح

ـــ يظْهر عليك أنك قد تأثرت من ذكر هذا الاسْم !!؟ أَلَيْس كذلك ؟

ـــ أَجَل ...

ـــ وما نوْع ذلك التأثير ؟

ـــ تأثير داخلى

ـــ وماذا قال لك هذا الصَّوْت الداخلىّ ؟

ـــ لا أدرى .. فإنى الآن لا أدرى ماذا أقول
ـــ قُلْ مافكرت فيه بصوْتٍ مَسْموع
ـــ لا أقدر على الكلام لأنى متألم جداً من الضغط على صَدْرى .. ؛ والكلام لايكون حسب الأمر بل حسب الاستطاعة .
ـــ ستنظر ذلك جيداً جدّاً .

فنظر الكاتب إلى الرئيس مستفْهماً عما يقصد ..

فقال الرئيس :

ـــ أظن أن ضَرْب وجْهه بالسوْط يمكنه من الكلام .

وسرعان ماجذبه أحد رجال التعذيب ، وجعل يجلده على وجْههِ بجلْدةٍ سميكةٍ مبلَّلةٍ بالماء .. ، فاحمرّ جلْد وجْهه ، وكاد يخرج منه الدم ، وجعل يتلوّى من الألم ، فقال له أحد الكهنة :

ـــ تعال يا « صموئيل » ... ، تقدَّم وآعترف أمامى بكُل خطاياك ، وقُلْ لى : بماذا تفكّر الآن ؟ قُل الحق قبْل أن يحلّ بك القصاص .. تقدم يابنىّ .. لقد كان اسمُك « محمد » قبل اعتناقك المسيحية فلماذا سَمّيْتَ نفسك « صموئيل » ولم تختر اسم قديسٍ مسيحى كبُطْرس وبولس ؟

ثم نظر إلى الكاتب وقال : اكْتُب :

ـــ أين وُلدْت ؟
ـــ فى « طَنْجة » ...
ـــ أإسبانىّ أنت ؟
ـــ كنت إسبانيّاً
ـــ ولماذا تقول كُنْت ؟

ـــ أقول هذا لأنى لست بإسبانى لكى أظل إسبانياً إلى الْأَبد
ـــ وأبوك ؟
ـــ ليس لى أب فإنه قد مات
ـــ وأمك ؟
ـــ ماتت أَيْضاً
ـــ وأين ماتا ؟
ـــ فى سجون (ديوان التفتيش)
ـــ أحَرْقاً ؟
ـــ كلا بل تعذيباً حتى تهرَّأَتْ أجسادهما .. فماتا من شدّة العذاب .
ـــ وبماذا اتُّهما ؟
ـــ لقد كانا بريئيْن
ـــ هل لك إخوة ؟
ـــ أظُنّ ذلك .. !!
ـــ كيف تظن !؟ أين إخوتك وأين يُقيمون ؟
ـــ بل قل لى أنت أوّلاً : أين ماتوا وأين قبورهم ؟
ـــ يظهر أنك تريد أنْ ينفد صَبْرنا معك ... فسنبْدأ بتعذيبك ...
ـــ يسوؤنى هذا ...
ـــ إذاً ... أنت لاتريد أن تدلّنا على البقيّة الباقية من إخوتك ولاعن مكان إقامتهم ، إن (الديوان المقدس) لايخفى عليه أن لك إخوة هم على قيد الحياة ، وهُم يُصلّون فى مساجد خَفيَّة ، ألا تعلم أَيْنَ هُم ... ؟
ـــ لا أعلم ...
ـــ لما صَدَر الأمر بسجنهم هربوا ... أفلا تعلم إلى أيْن ؟
ـــ كلا ...

ـــ تذكّر جيّداً لعلَّك تعلم !!
ـــ كيف يمكنني أن أتذكّر وأنا مضطرب الفْكر ضائع العقل ..
ـــ يجب أن تساعدنا على معرفة مقرِّهم حتى نخلص نفوسهم .
ـــ على غرار ما ستفْعلون معى الآن .
ـــ أنت تسكن مع امرأة ... فمن تكون هذه ؟
ـــ زوجتى ...
ـــ كيْف يمكنك آدّعاء هذا ؟
ـــ هى تريد أن يكون الأمر كذلك
ـــ علمنا أنها مسيحية وأنت بهذا العمل تخالف آداب ديننا المسيحى وتنْبذ العفاف ، فيجب عليك أن تسلّم زوْجك للديوان المقدّس .
ـــ هل هذا هو العفاف والدين عندكم ؟
ـــ نحن لانجادلك بل نأمرك ..
ـــ إذا كنتم تأمرونني فأوْلى بكم أن تَقْتلونى .. ، وهذا كل مايمكن أن تفعلوه ، وعندئذ سوف تُصلّى زوجتى من أجلى .
ـــ ويْلك ياشقىّ ... ألا تزال مُصِرّاً على إنكارك ؟ أَصْلِحْ هفواتِك وخطأك ياهذا وإلا فإنك سوف تدفع لعنادك ثمناً باهظاً ...

والآن فَلْنُتِمَّ أعمالنا أعمالنا ، قُلْ لنا أَين إخوتك وأيْن زوجتُك ؟
ـــ هم فى مكانٍ أمين ...
ـــ ألا تريد أن تعترف بأكثر من هذا ؟
ـــ إنى أعترف إلى الله خالقى فحسب ... أنتم تعذبونني والله يعلم أنى برىء
ـــ سوف تساق إلى التعذيب الآن فالأَوْلى لك الإقرار
ـــ لا يعنينى العذاب ... فإنى جسمى مخدَّر لايشعر

ــ إذا لم تجبْ على ماسألناك الآن فسوف تُسْقى الماء رغم أنفك ، يُدفع إلَيْك من خَلْفِك حتى يُقْضى عليك .
ــ لقد احترقت رجْلاى بناركم فلم أمت حتى الآن ...
فقال أحد القساوسة ــ وهو يتصنّع الرِّقّة والعطف عليه ، بصوْتٍ متكلّف :
ــ اعْلم يابُنى أننا لانَرْمى من وراء تعذيبك إلاّ إلى الإقرار عن بقيّة أهلك الذين تُحبُّهم وبذا تُنْجى نفسك ونفوسهم ، ونَصْعد بكُم إلى السماء !!!

فأجاب الرجُل :
ــ إذا صعدْنا نحن إلى السماء فَمن يهوى بكم أنتم إلى الجحيم وبئس القرار ؟؟

عندئذٍ أشار أحد رؤساء المحكمة بيده إشارة سريعة إلى المعذِّبين المرْتدين الثياب السود ، الواقفين أمام آلات التعذيب .. ، فهجموا عليْه وأخذ البعض منهم يضع الحبال فى يديْه وصدْره معاً ، ويلفّها لفّاً ، وآخرون ربطوا رجليْه بحبْل دقيق ثم وضعوه على مائدةٍ خاصة وأعادوا ربْطه عليْها ربْطاً وثيقاً ؛ وتقدَّم أحد هؤلاء المعذِّبين وهو يحمل جَرَّةً ملْأَى بالماء ، وتقدم آخر وفى يده قُمْع ، فقال الكاهن الموكل بوعْظِ الخاطئين ، والصلاة لأجلهم :
ــ والآن يا « صموئيل » لماذا تضطرّنا يابُنىّ إلى تعذيبك وإحداث هذه الآلام لك مادُمْت قادراً على الخلاص من هذا كُلّه إذا ماقُلْت لنا أين إخوتُك وأين زوجتك ؟؟
ــ لايمكننى أن أقول لكم شيئا عنهم لأنى قد وعدْتهم وأقسمت لهم بأن لا أخُونهم وأسلمهم لديوان التفتيش .

فقال الكاهن :

ــ ولكنا لانعتقد أنهم يرضون لك هذا الحال وهذا العذاب الأليم .. ، إن هذا السكوت لايُعَدُّ أمانة الآن بل يعد جنوناً ... قُلْ قبْل أن يَبْدأ الرجُل بتعذيبك ..

ــ إننى أشكر لكم إذا ماقتلتمونى مرةً واحدة .

ــ دعْ عنك هذا العناد يارجل ، وآعلم جيّداً أنك سوف تموت دون أن يعلموا بأنك مت فداءً لهم ، والمحكمة سوف تقبض عليهم إن عاجلاً أو آجلاً فتكون قد مِتَّ من غير فائدة ، ومع هذا فإن زوجتك هذه سوف تنساك لامحالة وتتزوّج سواك ... وربما تكون قد خانتْك الآن ... !!

فصاح الرجل :

ــ صهْ أيها النَّذْل الحقير ، وآعلم جَيّداً أن عذابكم لجسدى لا يعنينى قدر تَعْذيبكم بكلامكم هذا الذى تلفظه ألسنتكم القذرة السامّة ...

وبكى الرجُل وبدءوا بتعذيبه فكان صراخه يملأ القاعة ، ولكن. ليس من مُنْقِذ ، بيْد أن الْقُسس كانوا وقوفاً يُصلّون وبيدهم كُتُبُهم يرتّلون منها ...

وبينما هم يعذبون اُلمسكين على هذه الصورة سيقتْ سيّدة أمام المحكمة وكانت رابطة الجأْش ، ذات شجاعةٍ مُدْهشة ، ونظر إليها رئيس المحكمة نظرات حادّة ، كُلّها الحقْد والغضب والانتقام ، وسألها :

ــ ماآسْمُك .. ياهذه ..

ــ « سوزانا فرنانْدس »

ــ وسمع زوْجها المعذَّب فَأَنَّ أنيناً طويلاً ، وعرف أنهم قبضوا على زوجته ، وأنها وقعت بيْن مخالب وأنياب أولئك الوحوش العُتاة .. ، أما هى فلم تتمكّن من معرفة الذى يُعَذَّب ، بسبب الظلام الدامس الذى كان يلفّ

المكان .. ، ولكنها عندما سمعت الأنين التفتتْ لترى مَنْ يئنّ .. ، عندها بدأ رئيس المحكمة باستجوابها وعيناه تقْدحان شرَراً :

ـ بنْت مَنْ أنْتِ ؟

ـ لا أعْلم

ـ ألا تعلمين مَنْ أبَواكِ ؟

ـ كلا ... إنما رأيْت ذات مرَّةٍ رجُلاً مارًّاً بحىّ « تريانا » فقالوا لى : هذا أبوكِ

ـ أهذا كُلّ شىْء ؟؟

ـ نعم

ـ وما اسْم ذلك الرجُل ؟

ـ قيل لى إن له اسميْن : الأوّل : « الراهب » والثانى : « الرجل المهيج » !!

ـ وأمُّك مَنْ تكون ؟

ـ هى أمّى ...

ـ وأين هى ؟

ـ ماتت

ـ وأين ماتت ؟ هل سقطت فى الوادى الكبير ؟

ـ كلا بل قُتلتْ قَتْل العمْد .

ـ وكيْف كان هذا ؟

ـ إنها ماتَتْ جوعاً فى سُجون (ديوان التفتيش)

ـ وأين كانت تسكن قَبْل أن تُسْجن ؟

ـ مع رجُل من بقايا العرب ، كان يمر ببابنا كل يوم ، وقد عزم أخيراً على أن يسكن معها إلى الأبد ، فَسَكنَ ... وسأنْضم أنا إليْهما أيْضا ...

ـــ وهل مات ذلك الرجُل ؟

ـــ نعم قدْ مات فى سجون (ديوان التفتيش)

ـــ أكان مسيحيّاً ؟؟

ـــ لا أدرى ... ، ومع هذا فَلِمَ تسألوننى عن المسيحيّة كثيراً ؟ وماهو دخل الدين المسيحى فى (ديوان التفتيش) ؟؟

وماكادت السيدة تُتِمّ كلامها حتى بدأ رجال التعذيب فى تعذيبها تعذيباً مخيفاً تَقْشعر لذكره الأبدان

[انتهى]

* * *

الفصـــل الخامس

- وبَعْد
- الاتحاد السوفياتى والأقليات الإسلامية
- الاتحاد السوفياتى والعالم الإسلامى
- الحروب الصليبيّة المستمرَّة
- الخاتمـــة

وَبَعْدُ ...

فهذه صورة حيّة نابضة ، تتحدث بذاتها عن ذاتها ، وتنطق حروفها وكلماتُها بمأساةٍ إنسانيَّة ، ومَجْزرةٍ جماعية عالميّة ، وعصبيّةٍ ماعرف التاريخ لها مثيلاً ، ارتكبتْ باسْم الدِّين !!؟ وراح ضحيَّتها الملايين ، وقُهر خلالها الإنسانُ قَهْراً ، فكانَ « إبليس » وأَعْوانه قد تلبَّسُوا تلْك النماذج البشريَّه التى تَسَلّطتْ وآستبدَّتْ ... ، وعَذَّبتْ وذَبَحتْ ... وأزهقت الأرواح ؛ فما رَق لها جَفْن ولا ارتعش فيها عَصَب !!

استمرتْ فى طُغيانها أكثر من تِسْعة قُرون ، والغةً فى دِماءِ البَشَر ، أو راقصةً مُترنِّمةً مترنِّحة على أنين الثكالى والأيْتام وصُراخ المعذّبين ... مدمُوغةً بحُمّى الحقد الأَعمى ، والجاهليَّة .. ، والصَّليبيَّة ... ! تسعة قرون !!!

بل أكثر ...

ولقد تجاوزت « محاكم التفتيش » الخلاف العقائدى إلى الحجْر على العقول والإرادات ، وكل رأى حُرّ ، وأمسكتْ بخناق كُلّ عالم يقول برأيٍ يخالف ما تصوّرتْ واعتقدتْ والتزمتْ ، وجعلتْ من نفسها قيّماً على الناس حتى فى أدق شؤون حياتهم وأُصْغرها ، وعطَّلت فى الذات الإنسانية ما منحها الله تعالى من تكريم وتمييز ... ، وما أَمْر العالم « غاليليو » وغيره بخافٍ عن أسفار التاريخ !

كما تجاوزت أيضْاً صورتها الكنسيَّة الضَّيِّقة ، وحدودها الزمنيّة المتعارف عليها ، إلى آفاق جديدة رحْبة ، خارجةٍ عن الإقْليمية ، فطرقت

أَبْواب العالم هُنا وهُناك فى غزوةٍ استعماريّةٍ ، تجْعل من الناس رقيقاً ، ومن أهل البلاد دُمىً .. ، ومن أَرْضها مَرْتعاً خِصْباً .

وكان من نصيب العالم العربى والإسلامى أن رَزَحَ تحت وطْأة « محاكم التفتيش » ـــ الجديدة ـــ سنين عددا ، ومايزال إلى أيامنا هذه يُلَمْلِمُ جراحهُ ، أو يُزيل آثار العُدوانِ ... على عقْلِهِ وحضارته وفكرِهِ وثروته القوميّة ... ، فى حركةٍ ضعيفةٍ تتلمَّس السَّبيل .

ومامن رقعةٍ فى هذا العالم (العربى الإسلامى) سلِمَتْ من أخطبوط « محاكم التفتيش » ـــ الجديدة ـــ ، مهما كانت صغيرة أو كبيرة !! وهى إن سلمتْ من الغزْو العسكرى ، أو الاستعمار السياسى ، فإنها مرهونةُ الفكْر والشُّعور وأسلوب الحياة ... ، مقسورةٌ قسْراً على التسليم بمنهجيَّة « محاكم التفتيش » ـــ الجديدة ـــ وآرائها ...

أضف إلى ذلك ... الاقتصاد ... ، عَصَبُ الحياة ، فإنَّ أَهَمَّ وأعظم ثروةٍ لهذا العالم (العربى الإسلامى) مُشْدودةٌ حبالُها إلى أَوْتادِ خَيْمة « محاكم التفتيش » ـــ الجديدة ـــ التى تَسْتظِلّ وتَنْعم بمالِ المسلمين وثرواتهم ومقدّراتهم .

إن « محاكم التفتيش » لم تَنْتهِ ... ، ولم تَزُل ... ، بل انتقلتْ من « مدريد » و« لِشبونة » إلى « باريس » و« لندن » و« واشنطون » و« موسكو » وغيرها !!!

والذى يدقّق فى الصورة والأسلوب والغاية ... يرى ذلك بُوضوح ، أما من يأخذ الأشياء والأمور بِسَطحيَّتها البسيطة ، مظاهريتها المألوفة بأنه كالذى يستغْشى بثوْبِهِ من البرْق الشديد الخاطف ، واللَّمعان الباهر .

ومن نافلة القول أن نُعدِّد بِقاع الإسلام الّتى لعبت ــ وتلْعب ــ بمصائرها أيدى « محاكم التفتيش » ــ الجديدة ــ سواء عن طريق مُباشر أو عن طريق صنائعها ...

كما أن من نافلة الْقَوْل أَيْضاً أن نردِّد بأَنّ الدُّعاة إلى الإسلام هم المتهمون الرئيسيُّون فَهُم :
الرجعيُّون !!! والمتطرّفون !!! والمتآمرون !!! وعُملاء الاستعمار والامبريالية !!! إلى آخر مافى القاموس من مرادفات الشتائم ...

والواقع الذى لا مرْيةَ فيه أن الأمر ينطبق عليه القوْل المأثور :
[رمتْنى بدائها وآنسلَّتْ ...]

هكذا دَأْبُ « محاكم التفتيش » قديمها وحديثها ،

وليس حتْماً أن تكون « محاكم التفتيش » ــ الجديدة ــ على نسق سابقتها فى الحجْر الفكرى والعقائدى من قِبَل رجال الدين وأَحْبار الكنيسة فقط ، بل يُمكن أن تَخْرج عن صورة القلانس والأثواب السوداء الفضفاضة إلى مظاهر أخرى وزىٍّ آخر !!؟

الاتحاد السوفياتى والأقليّات الإسلامية !!

من التّزوير الفاضح على التاريخ أن تَنْطلى أكذوبة الأقليات الإسلامية فى الاتحاد السوفياتى !! ومن التزوير على أنفسنا أن تتقبَّل هذه الأكذوبة دون تمحيصٍ أو تحقيق ...

ليس هناك رقْم محدّد لعدد المسلمين فى آتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، ولكنه لا يقلُّ بحالٍ مِنَ الأحوال عن الخمسين

مليوناً من البشر ... ، حَسْب مايُنشر ويُذاع من إحصائياتٍ عن الكثافة السكانية فى المناطق الإسلامية .. ، فهل يشكل هذا الرقم [أقليةً] بالنسبة إلى التعداد العام للاتحاد السوفياتى ؟؟

ومن التزوير ـــ أيضاً ـــ على (التقدُّمية) أن تُعْتَصَرَ حياة المسلمين الاقتصادية فى قَرْصَنَةٍ مكشوفةٍ مفضوحة ويُسْتَوْلى على ثَرَواتهم قَسْراً وغَصْباً ، عِلْماً بأنّ مناطقهم هى أَغْنى مناطق الاتحاد السوفياتى بالثروة المعْدنية والزراعيّة والحيوانية ، وتشكل من ناحية الثروة القومية أَعْلى نسبةٍ .

والذى يَرْجع إلى السنواتِ الأُولى من عمر الثورة الاشتراكية ، مابين سنتىْ (١٩١٧ إلى ١٩٢٢) يرى بوضوحٍ لالَبْسَ فيه كَيْف كان الزحْف على المقاطعات الإسلاميّة ، وكيْف ضُمَّتْ إلى الاتحادِ غَصْباً وقَهْراً ، ويرى أَيْضاً طغيانَ العُنْصر اليهودىّ الحاقد الذى استشْرى آنذاك فى قلْب المجلس الثورىّ[1] .

إن إسرائيل تُقيم الدنيا وتقعدها على الاتحاد السوفياتى الذى لم يكن يسمح بهجرة اليهود ، وإن سَمَح بعد ذلك ، وبعد شنْشنةِ الدّعاية الصهيونية واتهام الثورة الاشتراكية بمعاداة السامية ، فبأعدادٍ قليلةٍ لاتتجاوز المئات ...

إسرائيل الحريصة على العنصر البشرى كيدٍ عاملة وخِبْرةٍ تَقنيَّة لِتَسْتفيد من وراء ذلك فى عملية بناء الدَّوْلة الغاصبة المعْتدية ، ذات الهدف التوسُّعىّ على حساب العرب والمسلمين ، شعباً وأرضاً ...

---

(١) يُرجى مراجعة كتاب «موسكو وإسرائيل» لمؤلفة الدكتور : [عمر حليق] .

وهى فى هذا تناصبُ الاتحاد السوفياتى العداء ، مستْقوية بأمريكا ...

فَمَنْ لِلْمسلمين فى الاتحاد السوفياتى ؟ الذين يتآكلُون مع مرور الزمن ... ! والذين يتلاشى آرْتباطُهم ويَضْمحل كُلَّما آنقضى جيل وتبعه جيلٌ آخر ... !

هناك زُوّارٌ مسلمون يرتحلون إلى الاتحاد السوفياتى بزيارات رسمية ودعواتٍ خاصة ، ويقومون بالاتصال بالمسلمين فى « أوزباكستان » و« طشقند » و« بخارى » وِفْق منهج رسمىّ يصحبهم المرافقون والأدلاّء المترجمون ، وكلا الطرفيْن : الزائرُ والمواطن تُحصى عليهم الأنْفاس ، فى مراقبةٍ دقيقةً ، حتى لايكون هناك أَدْنى تصارُحٍ أو تباحُثٍ فى العُمْق ...

اللهُمَّ إلا زياراتٍ إلى المساجد حيث تؤدى الصلاة خاليةً من كُلّ مضمونٍ ، فاقدةً لكُلٍّ معنى ...

أَلَمْ يأْتِكَ نبأُ الحديث الشريف : [مَنْ لم يهتَمَّ بأمْر المسلمين فَلَيْس مِنْهم] !!؟ وأىُّ أَمْرٍ أَهَمّ من تحرير المسْلم ... فى عقيدتِهِ ، وفى عبادته وفى حياتِهِ ، وفى شؤونه وشجونه ، ونظام حياتِهِ وعَيْشِهِ ؟؟ أو مساعدتِهِ على التحرير ...

زارنا منذ سنواتٍ فى « صيدا » الشيْخ : « ضياء الدين بابا خانوف » ، وكان اللّقاء على وليمةٍ وأُقيمت على شرفه ، دُعى إليها نخبةٌ من وجوهِ أهْل المدينة ...،

و« ضياء الدين » هو شيخ المسلمين فى الاتحاد السوفياتى ...

رافقه فى الزيارة إلى « صيدا » وفدٌ من السفارة السوفياتية فى « بيروت » ، وكُنْت أُلاحظُ طوال الفترة الزمنية التى ضمَّتْنا ــ خلال

الزيارة ومأدبة الغداء ــ أنه مُحاطٌ على الدوام بعنصريْن اثنيْن ، لاينفكّان عنه ، ويلازمانِهِ كظِلِّه ...

وهذه المرافقة الدائمة مفهومة الغرض والهدف ، وإنْ كانَتْ فى الظاهر تأخذ طابع « البروتوكول » والرسميّات !!؟

أما الأحاديث التى جَرَتْ والمواضيع التى بُحثت ، فإنها ــ والله شهيد على ماأقول ــ بعيدة كُلّ البُعْد عن هموم المسلمين ، وشجونهم ومصالحهم وقضاياهم ... ، ولا تتصل أدنى صِلَةٍ من قريب أو بعيدٍ بالإسلام ...

وحينما أَرَدْتُ أَنْ أوجّه سُؤالاً مُنِعْتُ من ذلك ، مَنَعنى من معى حِرْصاً على عدم جرٍّ (المتاعب) للرجُل الضَّيْف ...

تُرى هل يَقُوم أَمْر الإسلام ، أو يُقَوَّم طريقه ويُسوّى سبيلُهُ من غَيْر (متاعب) ؟؟

تُرى ... هل آمحتْ صورة « محاكم التَّفْتيش » من واقع التعاطى العقائدى وحُرّية الممارسة الدينيَّة للمسلمين فى الاتحاد السوفياتى ، أو حرّية الرأى والفكْر لأىٍّ مواطن ؟؟

الاتحاد السوفياتى والعالم الإسلامى

موضوع طويل ، واسع الآفاق ، متشعّب الجهات والأبعاد ... ، ولا ندّعى أننا فى هذه العُجالة العارضة نُلمُّ بكل جوانبه وتفرعاته ... ، فقط نريد أن نعرض له من زاوية ارتباطه بمادة البحث فما مدى الصِّلة بَيْن « محاكم التفتيش » من جهةٍ وبيْن الاتحاد السوفياتى والعالم الإسلامى من جهةٍ أخرى ؟

روسيا القيصريّة ، وروسيا الاتحاد السوفياتى ، كلاهُما له أطماعُهُ فى (المياه الدافئة) وهذا تعبير مألوف يراد به حوض البحر الأبيض المتوسط ، الذى تشكل الدول العربية والاسلامية ، أو تُغطّى ، معظم شواطئه ، وتتحكّم جغرافياً بمواقع لها أهميّتها الاستراتيجية فى المواصلات الدولية ، مثلاً : مضيق « البوسفور » بَيْن البحريْن « الأسود » و« المتوسّط » ، ومضيق « جبل طارق » الذى هو بوّابة « المتوسط » نحو « الأطْلَنْطى » ؛ وقنال « السويس » بيْن « المتوسط » و« البحر الأحمر » بٱتجاه « باب المندب » إلى الشرق الأقصى من ناحية ، والشواطىء الإفريقية الشرقيّة من ناحيةٍ أُخرى ...

روسيا القيصرية كانَتْ تطْمع بالمياه الدافئة ومايزخر حولها من خَيْراتِ العالم العربى والإسلامى ، وثروتِهِ القومية الهائلة ، تمشّياً مع الروح الاستعمارية التى كانَتْ « مُوضة » .. ! فى ذلك الحين ... ، وهل تَتْرُك « فَرَنسا » و« بريطانيا » تسْرحانِ وتمرحانِ ... وتضربانِ فى الآفاق من غيْر أن يكون لها حِصّة ؟؟

حاولتْ كثيراً أن تَخرق الحصار العثمانىّ أو تحطّم بوابة الشرق من هناك ، ولكنها لم تُفْلح ... ، ولم تكُن لتخْفى تِلْك الأطماع ، أو تسترها .. ، أو تداور أو تُناور ... أَبَداً .. ، بل كانَتْ تُفْصح عن رغبتها علانيةً كصاحبة حقٍّ فى « حِصّةٍ » معيَّنة و(نصيب) معلوم ...

حتى كانت الثورة البَلشَفِيَّة (الاشتراكية) ...

وكلمة « بلشفيك » تُقَابلها كلمة : « منشفيك » .. ، الأولى تعنى : الأكثرية ، والثانية تعنى : الأقليَّة ، يعنى أن السَّواد الأعظم من الشعب الروسى ، (طبقة) العُمّال والفلاحين هم المستفيدون والمؤيّدون وأصحاب الثورة ... ، وليس هذا موضوع بحثنا أو مادّته .

المهمّ أن (الثورة الاشتراكية) حاولتْ أن تَتَغلْغَل إلى قَلْب العالم العربي والإسلامى عن طريق إنشاء الأحزاب الشيوعية ، والذى يُراجع تواريخ إنشاء تلك الأحزاب يرى أن الظروف السياسية كانت مؤاتية ، حيثُ التطلّعات القومية فى التخلُّص من الاستعمار أو الانتداب كانت تتفاعل وتغْلى كالمْرجل ... ؛ ويرى أيْضاً ــ وهذا هو الأهم ــ أن الاسماء المؤسِّسة كانت (يهوديّة) !!!؟؟[1] فى مصر .. وفلسطين ... وسورية ... والعراق .. ، وإن لم تكُن مُؤسِّسةً فهى على الأقل صاحبة الفكرة والبذرة الأولى .

ولكنها جميعاً حُوربت وبقسْوة أحياناً كثيرة من قِبَل السُّلطات الحاكمة ، وظَلَّتْ ردحاً من الزمن بيْن مدٍّ وجَزْر ، غير ذات تأثير سواء على الصعيد الفكرى الحزْبى ، أو على صعيد القاعدة الشعبيّة العريضة .

وازداد غليانُ العالم العربىّ والإسلامىّ خصوصاً بعد هزيمة الجيوش العربية فى فلسطين وتشريد أهلها ، من خلال مؤامرةٍ فاضحة ...

ثم كانت إطلالة الاتحاد السوفياتى المؤثّرة عام (١٩٥٦)م من خلال صفقة الأسلحة (التشيكية) لمصر ، والتى سمِّيت آنذاك بأسماء طنّانه رنّانة مثل : (كَسْر احتكار السلاح) وغير ذلك .

ولو أن الموضوع برمته لم يتعدَّ السلاح لهانَ الأمر ، ولكنه كان الوسيلة إلى تَصْدير الفكْر والسياسة والوقوع فى شباك التَّبَعيّة ... وأىُّ تبعيّة !!!

هناك مغايرة (ديماغوجية) بيْن الوجود الغربى الرأسمالى الاستعمارى الأمبريالى ... الخ ؛ وبيْن الوجود (السوفياتى) ... نصير

(١) كتاب (موسكو وإسرائيل) للدكتور «عمر حليق» .

الديموقراطية ، وحركات التحرُّر ، والتعايُش السلمى ، و ... إلخ أيضاً .

إذاً هو مقبول ومرضيٌّ عنه ...، بل مطلوب ...

وبدأت (الاشتراكية) كنظام إجتماعى وسياسى واقتصادى ، تتسلل إلى قلْب العالم العربى والإسلامى ، تَتَسلَّل !!؟ غريبٌ أمر هذه الكلمة ... ، بل إن شئت أن تقول الحقيقة : تَتَدفّق .. !! وأُصْبحت هى الدّين الجديد ؛ ولوْلا طائفة من المسلمين ــ مهما قبل فيها ــ تصدَّتْ لهذا التيَّار الجارف لانْقلب الوضع إلى أسوأ بكثير مما هُو عليْه الآن ...

وقامت « محاكم التفتيش » ــ الجديدة ؛ بكُلّ غثاثتها وإجرامها وتَنْكيلها تَضْربُ ضرباتها هنا وهُناك ، فتقطع الرؤوس ، وتَرْمى فى أقبية السجون ، وتُرهب وتُرعب ، وتنفى وتُشرّد ...

والملاحظ أن مامِنْ دولةٍ عربيّةٍ (طقَمت) شعارها بالديموقراطية والاشتراكيّة إلاّ وكان نصيب الإسلاميين فيها أُشَدّ العذاب وأقسى البلاء ... ، وكلّما أُمْعَنَتْ فى الطغيان لقيت تصفيقاً وتشجيعاً من (الكرملين) لِأُنّها ــ أى الدولة ــ تثبت جدارتها بـ (التقدميّة) ...

الحروب الصليبية المستمرة

(المسألة الشرقية : Probléme d'orienti) عبارةٌ استخدمت كثيراً فى أُوْروبا فى القرنيْن الماضيْن ، وهى تحمل فى طيّاتها خلْفيَّةً تاريخية مُتأصّلة فى نُفُوس الغربيّين بالنسبة إلى طرْدِهِم من الشَّرْق بعد أُن اكتسحوهُ فى حملاتهم الصليبيّة المتتابعة ، وأقاموا فيه ممالِكَ لهم ... ، فترسّخَتْ فى أُعْماقهم آثارها ونتائجها ، كما ظلت بواعثها تتفاعل مع

مرور الزِّمن ، يتحيّنون الفُرص للانقضاض على الشرق من جديد ، واستعماره واستعباد أهله .

وما الشرق بالنسبة لهم إلا الديار العربية والإسلامية ، وجذورها الدينية والحضارية ، ﴿ **يريدون ليُطفئوا نور الله** ... ﴾ ...

وتلازمت عبارة (المسألة الشرقية) مع عبارة : (الرجُل المريض) ؛ وكانوا يعنُونَ بها (الدولة العثمانية) ... ، وهى على الرغم من مرضها ــ حقيقةً ــ فى المرحلة الأخيرة من عمرها كدولةٍ ذات سلطان واسع ونفوذ قوىّ ، أُصيبت بالتآكل والانهيار ... ، على الرَّغم من هذا فقد استطاعتْ أن تصدّ أطماع الطامعين وتقف حجر عثرةٍ فى طريقهم وشوكةً فى حلوقهم ...

إلى أن كانت الحرْب العالمية الأولى ...

وقد هيِّىء للدولة (العثمانية) فى الداخل كُلّ أسباب الانهيار والسقوط .

فلما انتهت الحرب بتلْك الهزيمة ووقعت البلاد العربية ــ الإسلامية ــ من جديد تَحْت وطْأةِ التحالُف الأوروبى ، ذَهَبَ قائد الجيْش الفرنسى « غورو » إلى « دمشق » ودَخَلَ قَبْر « صلاح الدين الأيوبى » ... ووقف يَنْظر ويَستعيد ذكريات التاريخ ، ثم رَكَلَ القبْر برجْلِهِ وقال : [لقَدْ عُدْنا يا « صلاح الدين » ...] وكأنّه يقول : لم تَنْتَهِ الحروب الصليبيّة ، وهانحن فى حملةٍ جديدة !!!

وتظل المياه الدافئة (حوض البحر الأبيض المتوسط) مطمحاً من مطامحهم ، وهدفاً من أهدافهم ، فوطدوا فى دُوَلها وأمصارها أقدامهم ،

فكانت فرنْسا فى المغرب والجزائر وتونس ، وإنجلترا فى ليبيا ومصر والسودان وفلسطين ، وفرنسا فى سوريا ولبنان ، وأمَّنوا تَقْزيم وتحجيم (الدولة العلية العثمانية) إلى جمهوريةٍ طورانية النزعة ، غربيَّة المنْهج .. !

أما العُمْق الجغرافى الذى سَعَتْ إليْه دولتا الاستعمار والانتداب : فرنسا وإنجلترا ، فى بعض الدِّيار الإسلامية فى آسيا وإفريقيا ، فقد كان الغرض منه إما الناحية الاقتصادية كبترول العراق بالنسبة إلى إنجلترا ، وخطوط المواصلات نحو الشرق الأقصى فى (عَدَن) ، أو الناحية الأمنية ، أو كنقاط ارتكازٍ إلى قلْب القارة الإفريقية ، كما فعلت فرنسا فى السِّنغال وموريتانيا وتْشاد ... وجيبوتى .

ولقد أُصَّلتْ الصليبيّة الجديدة جذورها فى الأعماق ، حتى إذا ما انتفضتْ الأُمّةُ بدافعٍ ما فى وَجْهِ الاستعمار والانتداب ، سواء كان الدافع قوميّاً أَوْ وطنيّاً ، وخَرج المستعمر من البلاد ظاهريّاً فإن لَهُ فيها ركائز وقواعد ، فى الثقافة والفكر ، فى أسلوب الحكْم ... ، فى التطلّع الحضارى ، وفى محاربة كلّ ماهُوَ إسلامى ... وهذا هُوَ الأهم !!

لذا فإنّ المعركة الإسلامية مع الصليبيّة المتجدّدة المستمرة ، تَأْخُذُ على الدوام أشكالاً وألْواناً وصُوَراً ... مخْتلفة ، وجبهاتٍ متعدّدة ، ومن هنا كانَتْ مَشَقّة العمل وصعوبته ، وقسوة المعركة .

ولعلَّ المستنْقع اللبنانىّ طوال السنوات العشْر الماضية هو أَبْلَغُ صُورةٍ عن الحرْب الصليبيّة المتجدّدة ...

المستْنقع الذى تَطْفح فيه الدماءُ ولا تجفّ ،

دماء المسلمين الذين كان قدرهم أن يكونوا وقود هذه الحرْب !!![1]

(١) يرجى مراجعة كتاب الحرب الصليبية العاشرة للأستاذ حلمى القاعود (دار الاعتصام – القاهرة) .

ولعلَّ (محاكم التفتيش) فى « إسبانيا » و« البرتُغال » تتضاءل وَحْشيّةً أمام مبتكرات ، وأساليب « محاكم التفتيش » [الكتائبية] فى لبنان !!! لكُلّ من هُو مسلم ...

تتضاءل ، أو تتوارى خجلاً من عار الهمجيّة التى مارسها أتْباع رسُول الرحمة « عيسى بنَ مريم » ــ عليه السلام ــ بحقّ الإنسان فى لبنان ...

* * *

الخاتمة

وبعد ...

فهذه صورة « محاكم التفتيش » بأقْدميَّتها التاريخيّة ، وَجِدَتها المعاصرة ... كُلُّها آستهدفت وتستهدف الإسلام .

وطالما أنَّ المعركة قائمة ومستمرَّة فَـ « محاكم التفتيش » ملازمة لها .

كما أن قلّة قليلة من الناس قد آطلعت على مخازى وفضائح « محاكم التفتيش » فى التنكيل بالمسلمين فى « إسبانيا » والبرتغال » ... ، رغم أنّنا قد قرأنا الكثير الكثير عن آستبْدادها وغطرستها بالنسبة لكُلِّ فكْرٍ حُرٍّ أو رأيٍ علميٍّ مَحْض ، على غرار ماحدث لِـ « كوبرنيكوس » و« غاليليْو » وغَيْرهما .

وَظلَّتْ تلْك الأعمال البربريَّة ــ باسْم الكنيسة والحقّ الالٰهى ــ حيناً من الدَّهْر تَضْرب الرقاب وتكمّم الأفواه ، وتطغى ... حتى أوائل القرْن التاسع عشر ... ، فى عمليّة امتداديّةٍ واكتساحيّة .. كأنها التّيار الجارف الذى لايُقاوم .

ولد نَبَّهت الأحداث اللبنانية (الحرب القذرة كما يسمونها) التى بَدَأتْ منذ عام (١٩٧٥)م ، والّتى أثبتت بصورة قاطعة جازمة أنّ « محاكم التفتيش » قد بُعثت من جديد بكُلّ فظائعها وجرائمها .. ، نبَّهتْ حسّى ومشاعرى إلى ماكُنْت قد قَرَأتُ فى سالف الأيام .. ، فَرَجَعْتُ إلى مطالعاتى ومابيْن يدىّ من مادةٍ مكتوبةٍ أو مطبوعة ، واستعنْت الله تعالى على صياغتها وإخراجها فى هذا الكتاب ، لِأَضعها

بَيْن أيدى الْقُراء وثيقةً للتاريخ ، وخدْمة للإسلام ، عسى الله ـــ سبحانه ـــ أن يَنْفَعَ بها .

والحمد لله أولاً وآخراً

٩ جمادى الثانية (١٤٠٦)هـ
٢٨ فبراير (شباط) ١٩٨٥م

المؤلف
محمد على قُطُب

* * *

المراجع العربية

١- (تاريخ وفظائع التفتيش فى البرتغال وإسبانيا) .
(جرجى حداد) طبع : (سان بوْلو) - البرازيل - ١٩٢٣ .

٢- (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) .
محمد عبد الله عنان (دار الكتاب المصرية) ١٩٣٠ .

٣- (محاكم التفتيش)
الدكتور (على مظهر) ١٩٤٧ .

المراجع الأجنبية

1- Don Juan Antonio Liorente:

Histoire Critique de L'espage

2- Inqusition: (دائرة المعارف البريطانية)

3- Henry Ford:

The internationale jude (اليهودى العالمى)

4- Henry Charles

Lea: The Moriscos of Spain

5- Josef Condé

Histoire dela Arabes en Espagne .

6- William Prescott:

History of Ferdinand and isabella of Pain .

الفهرس

الصفحة

رقم الايداع ٤٦٣٨/٨٥